عبدالعزيز مشري

ريح الكادي

رواية



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدرت الطبعة الأولى كإصدار خاص في ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ عمان

* صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٩٢ عن دار الأرض بالرياض

* لوحة الغلاف للمؤلف

(١)

باليد الواحدة من الصحن كانوا يـــأكلون ، وبــاليد الواحدة في شأنِ الحياة يعملون ، يسرحون في الصباحـات، وإلى الدورِ في العشيةِ يروحون .

الأرضُ المعطاء ، تســاوي بـين ذات المـرأة وذاتِ الرجـلِ والكلُ له على قدرِ التعبِ نصيبْ .

.. وأذن ديك من فوق مدماك الحجر لأعلى بيت على حافة القريـة، وتبعه أذان ديك ، وآخر في الساحات الآهلـة بالنـاس وبالمواشـي وبضجيج العائدين إلى بيوتهم من المزارع ، قبل عودة شمس النـهار إلى مغربها .

جرى الأولاد في الطريق المتسربة في مداخلها بين البيـوت ، وعلـى حذر جروا على مهل فوق الأسطح ، يجمعون الدجاج ويحوشونه نحو المبيت .

كانت امرأة عجوز قد غسلت يديها من ماء الحنفيـة الزنـك المتراخية عند طرف ساحة الـدار ، وغسـلت الطاسـة المعدنيـة البيضـاء، وفركت قدراً صغيراً تضع الطاسة على فمـه ، وتهيـأت لتدب في بقايا الضوء إلى سبات بقرتها ، تحلبها وتذكـر اسـم الله كثيراً، مستجلبة البركة بعيداً عن الشياطين . بينما قعـدت ابنتـها، وكانت عانساً ، تغذي ناراً تجمّر في مشب الدار بين يديها ، تفـرك بكفها حرارة دخان الحطب في عينيها ، وتلقي به قطعـة في ذيـل أخرى بين وقت ووقت .

وكان قدر يكبر قدر الحليب قليلاً ، يزداد من قعـره وجوانبـه تفحماً وسخونة ، ويجلجل بطعام ، ويُسمع منه أن به مقداراً فائضـاً من الماء ، ويُسمع منه طشيشٌ في كل فينة على الحواف .

أما وإن النهار قد أخذ يلمم ضوءه من المخابئ والطرقات والساحات ، فقد سحب شحوبه من الدار ، وبدت النار التي تلفظ دخانها في العيون والسقف والحيطان ، تبرز واضحة ، وترسم خيالات متحركة على الجدار ، وكان على الرجل الثاني في البيت، وهو الوحيد للشايب (عطية) والمتزوج والأب لأربع ، أن ينظف بقطعة قماش قديمة ، زجاج المصباح ويملأه إلا قليلاً بالجاز.. ثم يشعله، فتكتنز الغرفة بالنور ، ويتسرب مشعاً من الباب ومن النافذة ، فيذهب يرسم مستطيلين ضوئيين على الساحة .

وكان الأحفاد الأربعة قد فرغوا على التو من نثر حبوب الذرة أمام ملاقط الدجاج ، ونهروا الديك مراراً ، فقد كان في لقطهِ للحب سريعاً ، وكان ينهبه من أمام دجاجة ويضعه أمام أخرى ، فيحرم هذه ويعطي تلك ، يحدث صخباً ، ويحدث قرقرات متدافعة يهتز معها عرفه الأحمر .

على بعد قريب تجمع الجار ، وجار الجار ومن يواليهما ، حول ركن المسجد ينتظرون حلول وقت المغرب ، وكان الشايب (عطية) في جبة صوفية يتحرى الوقت ، لتجمعهم الصلاة بينما

سأل المؤذن ، وهو الجار الملاصق ، أحد المتعلمين إن كانت الساعة قد رست على الموعد الموقوت ، ليصيح : (الله أكبر) .

يرفع ذراعيه إلى مستوى الأذنين ، ويطبق عليهما بكفيه، يجعل قوته في صوته ، وينهيه : بـ (لا إله إلا الله) ، ثم يبسبس بترديد مع القاعدين ، بنوع من الدعاء القليل ، ولا يكاد يسمع منه بوضوح عبارة . وكان الإمام قد استعان الله ، واعتمد على ذراعيه فوق الركبتين واقفاً ، وقاد الجمع القليل إلى داخل المسجد، ليبدأ بفاتحة الكتاب وما تيسرّ جهراً ، ثم يختمها قاعداً : بـ (السلام عليكم ورحمة الله) متلفتاً إلى اليمين .. ومتلفتاً إلى الشمال .. ثم يخرج الكل إلى مكان حذائه ، في الخارج عند الباب، يحتذيهما في ظلمة أول الليل ، ويهرول إلى داره .

و ..

دخل الشايب (عطية) ساحة الدار ، فغمر قلبه أنس خافت، وغمرت قامته تلك المساحة المستطيلة الباهتة من الضوء، الممتدة أمام الباب .. فصاح على قدْر مسموع :

- (يا عيال الخير .. عشيتّم الحلال ؟) .

وجاء صوت الجدة (رفعة) ، والأحفاد

- (تعال)

و لم تكن (تعال) لتعني أنه سيقوم بتقديم العلف للبقرة أو الحمارة ، أو حتى الدجاج ، ولكن .. ليطمئن قلبه ، أو ليطمئنوه، فهو ملحاح كثير المتابعات ، يدخل أنفه في كل صغيرة .

و لم ترد (مليحة) على استفسار كهذا ، فها إنها في ظلام الحاجز الخشبي ، الذي يكوّن كالصندوق غرفتها، تحط حزامها، وتُحلّه عن وسطها ، لتبدل ثوبها ، وتحشر جسدها في آخر ، أقل نظافة ، لا يليق إلا بالبيت ، وها إنها قد دخلت إلى مبيت الحلال، وأركنت حزمة كبيرة من البرسيم ، تصبح الجدة في الغد، تنثرها عند فم بقرتها .

زوجها لا يسمع لها كثيراً ، مثلما تفعل الجدة ، ولا يعجبه ما تفعله من عمل برغم إخلاصها وعنائها ، وتلك حالة كل جيل قديم ، لا يستطيب أفعال الجيل الجديد ، فيرى في أفعاله القصور، ويرى فيه الخلل والعيب ، فكانت تتحاشى حتى الرد عليه ، أو إقامة نثار الكلام معه .

ومع أنه كان مُوداً لأحفاده ، حنوناً عليهم وعلى كل أهل الدار ، بما فيهم هي ، إلا إنه ينتقد كل صغيرة ، وينفذ إلى أتفه

الأمور ، فيجد من يتذمر من فعلته تلك ، أو من يتحاشى الخوض معه ، وفي كل حال ، فليس هناك غير حبس الكلام ، والطاعة العمياء ، و .. كلّ يعرف الواجب عليه ، ويعرف كيف يصيغ مهمته في العمل .

وكانت الجدة شديدة في التقريع ، ودائمة الشكوى ، وكريمة جداً في الملاحظة والانتقاد .. فهي مرة تنفرد بتقريعها ، ومرة تصاحب زوجها ، ومراراً تلقي بشرارة فتوقد نار الكلام، ويتحرك لسان الشايب فلا يهدأ ، فتدخل بقدر الحليب ، وقد ملأته من أثداء بقرتها ، هي "تونون" أمام زوجها ، بأن العجل الصغير قد قطع رباطه ، وامتص حليب أمه ، وهذا بسبب إهمال تلك المخلوقة الباهتة ، مع إنها هي التي لا ترضى لأحد أن يقترب من بقرتها ، وليس لها عمل في البيت إلا هي ، تغذيها وتسقيها وتحلبها، وتخضّ حليبها ، فتجمع الدهن ، وتصنع منه السمن .. يشربون اللبن، ويغمسون الخبز في السمن ، إلا أنها تونون ، وتدين (مليحة)، أما (صالحة) ابنتها فلها الكلمة اللينة ، ولها الوصاية والرضى ، و لم تكن (صالحة) لترضى في تعامل أمها دون زوجة أخيها ، فقد كانت صديقة قلبها وخواطر صدرها ، في الوادي وفي البيت، وكانت دائماً تواسيها :

- اصبري يا أخت .. دعيها تثرثر ، إنها مخرِّفة .

- تعبت من فتنتها ، ومن تحرشها بي .

- لا عليك .. لا بد أن الله يزيل هذا الشقاء .

- العيب على ذلك الصامت .

وكانت تعني زوجها الذي كان يحضر معارك طويلة من الكلام والشتائم ، فلا يلقي بكلمة واحدة ، وكأنما هو كيس ذرة صامت بعينين متحركتين ، وأذنين طويلتين .

وكان على ما يبدو غير راض عما يسمع ويرى ، لكنه لا يقدر على الكلام في هذه الشؤون ، وإلا فإن الشايب الذي لا يعجبه حال، سيحلف عليه بالطلاق ألا يبيت في الدار ، هذا الذي يجري وراء مشورة زوجته .. ليذهب هو وهي إلى حيث لا يدري، وهي انفعالة لا تلبث أن تنقلب على ضدها من الشايب وقت هدأته، وهو يعلم أن فلذة كبده لن يؤاخذه على انفعالته التي تحدث أحياناً، ويعود بعد ساعات يقضيها عند الجار ، و الشايب (عطية)، لا يقدر على أعمال الزراعة ورعاية الدار وحيداً ، وهو الذي يغيب لساعات طوال في دار هذا أو ذاك ، يشرب الشاي، و يدخن، ويقطع الحديث مع جاره ، الذي يقضي أرذل العمر ، ويرحب

بأي زائر يتحدث معه . وعلى وجه آخر فالشايب (عطية) يجد في ابنه وأحفاده بذور قلبه ، ومتعة حياة تملأ الدار بأنسها .

كانت (صالحة) ، مع أبناء أخيها طيبة ، لطيفة ، وكما هي (المليحة) صديقة ، فهي كذلك لهم ، وإنها لا تخفي من طيبات أمها التي تنالها عنهم ، تشاركهم فيها دون خصاصة ، والجدة الوكيلة القائدة في الدار ، تعلق في صدرها مفتاحاً غالياً في نظر الجميع ، يفتح قفلاً كبيراً صدئاً معلقاً على باب حجرتها ، وحجرتها التي لا تخلو من رائحة السمن لها أيضاً روائح أشياء نادرة ومحببة ،كبعض البسكويت ، أو الفاكهة ، تختلط بروائح الكادي والبعيثران الذي تدسه تحت مخدتها ، وبين ملابسها ، تنال ابنتها (صالحة) منه وتنال من كل النوادر المخبأة ، وكثيراً ما كانت تمد يدها إلى التمر القليل الذي لا يخرج إلا للضيوف ، فتعطي الأحفاد ، وتوصيهم يذهبوا بعيداً خارج الدار ، يأكلون ويلعبون ، و يرمون بالنوى بعيداً عن العين .

لم يكن للأولاد الثلاثة الذكور نصيباً ، أكبر من أختهم في البيت ،كلهم يأكلون مع الكبير في صحن واحد ، يلعبون جميعاً ويساعدون الوالدين والجدين ، غير أن ميزهم ، ذهابهم إلى المدرسة .. على مسافة ساعة على القدم ، لهم نصيب من خبزة

الفطور، يأخذونه في حقائبهم ، ويأكلونه وقت الفسحة بين الحصص ، ثم يشربون من حنفية الزنك الكبيرة والوحيدة في فناء المدرسة .

كانوا جميعاً هادئين كالماء ، كما يصفهم جدهم ، وبعيداً عن العين كان الكبير القادم على التسع يأنس بصحبة أخيه ذي الثمان، فيسقطون على سبات الدجاج ويقتسمون في الخفاء بيضة واحدة وتكتشف الجدة ، فتلهج بالدعاء على من يأخذ بيض دجاجاها ، الذي تجمعه وتعطيه أحدهما يبيعه على المدرس الأجنبي، أو تودعه يداً أمينة هابطة إلى السوق .

أما الشايب ، والذي كان بين وقت ووقت يهدد دجاجاها بالسكين على مسمع منها ، فإنه في وقت ترضى فيه الجدة ، ينال صحناً به بيضتان مع السمن . لحظتئذ يكون الأولاد في المدرسة، والطفلتان نائمتان ، والابن وزوجته في الوادي .

باع الشايب ، وهو صاحب الرأي ، بعد خصام مع الجدة، ثوره الأحمر الذي كان إلى جانب ثور الجار ، يحرثان ويسقيان بهما أرضهما، وبقيت البقرة التي لا يحدّث باله ببيعها مهما كانت

حاجته ، أو قلة غذائها ، وربما خوفاً واجتناباً لحـــرب الـــجدة في البيت ، وبقيت حمّالة الحطب والطحين وقرب الماء ، التي لا يســـتغني عنها مستخدم ، لها في بيت الحجر على سفح الجبل .

كان الشايب (عطية) يمتدح بياضــــها وارتفـــاع قوائمـــها، ويشبهها بالفرس ، لها خرج مطرز بالألوان، وفي رقبتها سلسلة طويلة تمسك بخطامها ، ويسمع لها جلجلة يستطيب له هزها حين يعتليها في هبوطه وصدوره من السوق .

قالت الجدة :

- أكلت علف البقرة تأكل الأخضر واليابس .

وقال الشايب :

- بقي أن تطعميها من خبز عيالنا

وقالت (مليحة) لنفسها :

- التعب والشقاء.. وصلب الكلام عليك يا مسكينة .

وكانت تهز في فتور مهداً من الجلد علق في وتـــد بـــارز علـــى الحائط الترابي ، وقد غطى الرضيع بقماش من (شرشف) قـــديم،

حتى ليكاد أن يختنق ، وكان صراخاً مضغوطاً ينفذ بصعوبة من داخل اللفافة في المهد ، فتطالعه الأم وتدفع بذراعيها لتهزه في يقظة وعناية ، ثم ترفع نداءها الثاني ، تطلب من فلان من الأولاد ، يملأ إبريق الوضوء بالماء ، ويقف يصب بين يديها في الساحة ، تغسل الرضيع وتلقمه على مرأى ثديها ، فالصياح له سببه تعرفه، وتعرف إسكاته .

وكان الزوج الذي لا يرفع من صوته إلا عليها ، يشكو من صراخ هذا الذي في المهد وقت النوم ، ووقت الجلوس، وكانت ترد :

- اسكتي يا حبيبتي . سأغسلك.. سأطعمك .

وكانت الجدة التي تعلم بكل عمرها أن السمن ، دواء جيد للرضيع ، تقول :

- لا .. السمن يحرق الرضيع ، ويجعل بدنه نحيلاً ، حليب البقرة كله دهن .. لا يصلح للرضيع، يصيبه بالإسهال.

فتسمع الأم هذه الشحاحة من الجدة ، وتغمض عينيها .

(٢)

يــا أظلافَ الخير ، يــا للسنام المائل ، والأذن المخــروزة ..
يباركك مَبــاركُ الحَلالْ ، ويعطينا بكَ مع حدّ المحراث كل طيّــب
الثمرْ .

وإن كان لك كبعض القــذى اليســير في العــين ، قرنــان
"كجنبيتين"، فليس للنفس طاعة ، كيف أقص واجهــة وجــهك
يــا مالي ؟!

بعد حين من الزمان جاء على الناس فيه شتاء طويل ممطر ، كـانت الأرض تهيئ أديمها لسن المحراث ، وكان على الشايب (عطيـة) أن يستبدل ثوره الأحمر بآخر أصغر سناً ، وأقوى عضلاً ، وأكبر في عين أهل الدار جميعاً ، وكان عليه أن يجهز بأي حال مالاً يزيـد علـى الثلاثمائة ريال ، وهو الذي يعلم علم اليقـين وقتما بـاع ثـوره الأحمـر، أن لا بد من بديل ، ولكن بعد حين ، وأنى له وقتها مـن علـف يومي ، وعناية تضاف أخرى إلى جنب البقـرة والحمـارة، الوقت شحيح في خضرة الوادي والجبل ، ولا يعلم أحد إلى متى تبقى الأرض غبراء ، فرأى دون مشورة ، بيع الثور .

وكان قد صرف مائة وأربعين ريـالا مـن مـائتين وخمسـين مقبوضـة ريالا ينطح آخر ، ويحتاج الآن فوق المائة وتسعين مدفوعة قيمة للثور الجديد ، فباع أرادب من حنطة البلاد ، واسـتلف مـن صديق قـديم في القرية المجاورة ، وكمل ما نقص من ابنه ، وكـاد (حامد) يعمل (ملقفا) يساعد البناء ، فيحمل على ظهره الـذي يضع فوقه (خيشة)

يدخل في حلقتي ذراعيها يديه ، في وقـت تعلـم كيـف يـهذب الحجـر، ويصلح واجهته فيكون مستويا على المدمـاك ، ويقبـض أجرا يوميا ، فدعم الأب بخمسين ، واشترى قائد الدار ثـورا يمـلأ العين . وفي النظرة إليه يأمل الخير ، وتأتي على أظلافه البركـات ، لا

عيب فيـه إلا أنه يحتاج إلى (خزامة) تثقب الأذن اليمنى ، وبحبـل صغير مظفّر يربط من شق في الأذن إلى الأنف ، يمكن تدريبه علـى الطاعة والانقياد .

وقف الثور في الساحة أمام عصا الجد، وهـز ذيلـه الطويـل، وأرعش سنامه ، فاقتربت الجدة ، ومسحت بالكف المحنّاة ، وتلـت كل ما تعرف من دعاء التبريك ، ونثر لسان الإبن المبتسـم كـلام المديح ، ومن باب الدار وقفت زوجة الإبن وبنت الجـدة العـانس وشيء من الرضى يأتي على صدريهما ، فينطق بكلمـة قصـيرة أو بأخرى ، و تكون مديحاً أو :

- فليبارك لنا الله في حلالنا .
- الله .. يعطينا خيره ، ويكفينا شره .

وكانت (مليحة) تعتمد بكتفها على حافة الباب ، وتهز علـى مهل مهداً على الكتف الآخر .. من جلد الماعز المدبوغ ، وتجـاهد لتهدئ من صراخ الرضيع الملفوف بداخله .

أما العانس فبدت من التفاتتها بين ومضة وومضة ، متعجبة لأمـر ما ناحية مشبّ الحطب ما لبثت أن استدارت وسـاقت قامتـها نحـو الداخل .

جذب الشايب من الرباط رقبة الثور وقاده في غـــير عنـــاد إلى مكان علفه ، غير بعيد عن معلف البقر، وتبعته الجدة بينمـــا كـــان أصغر أحفادها يتشبث بذيل ثوبها ، ويزداد في الإلحاح مطالباً تفتـــح قفل غرفتها لتعطيه حبتين من التمر الذي لا يخرج إلا مـــع إفطـــار الشايب في الصباح عند شربه للقهوة بعد صلاة الصبح ، أو لضيـــف مباغت ، وكان أخوه الذي يكبره والأكبر ، يحرضانه عـــن بعـــد، وسينالان من التمر نصيب ما سيناله ، ولكن الجدة التي لا تســتجيب في العادة لمثل هذا الاستعطاف المدعم بالدموع والتشبث ، تضطر بعد كثير من النهر والتوبيخ لنداء (صالحة) ، وتجرجـــر خطواتهـــا إلى غرفتها ، فقد اشتهى الأب في ساعة عصر كهذه فنجان شـــاي ، ولا بد للجدة من حمل إبريق الشاي من معلاقة ووضع ما يمـــلأ أصـــابع اليمين ملموسة بالشاي ، وحفنة من السكر ، فـــهي تخـــاف الأولاد يسفّونه إذا ما كان في علبة قرب مشبّ الحطب .

وجاء صوت الشايب حاداً معيباً أحفاده :

- نعم .. تموتون من أجل حبة تمر ! أين النفـــس العاليـــة ؟ أخاف بكرة النهار .. يبيع أحدكم أرضه ليشتري التمـــر والحلوى ، يا عيباه .

وكانت العانس (صالحة) ، و(حامد) وزوجته ، يصمتـــون وكأن شيئاً لم يكن ، فهذا شغب هيّن لا هـــدف للشايب والجـــدة منـــه ، غير تقويم التربية .. من الكبير للصغير . وشعشعت على فوح أول فنجان شاي تصبه العـــانس للشـــايب ، أغنيـــة (يـــا ورد) للمطـــرب المحبوب (طلال مداح) من الراديـــو (الترانسســـتور) الصغير الذي حل محل راديو البطارية الثقيلة القديم ، وامتـــدت يـــد الشـــايب ، المتكئ إلى هوائي الراديو لتنقويـــة الصـــوت ، فـــرأى الغـــلاف الذي خاطته بالإبرة العانس عند المجيء به ، قد انفتق قليـــلاً من الجانب ، وكان يبدو واضحاً أنه من بقية قماش ثوبهـــا الـــذي ترتديه .. أخضر مزهراً بزهـــور صفـــــراء كبيـــرة ، وفـــهمت العانس لحظتها أن لا بد من رتقـــه ، فقامت على مضض ، خـــوف انتهاء الأغنية ، وعمدت فتحة عميقة كالصندوق المحفور في الحـــائط، وجاءت بلفافة قماش بيضاء بداخلها الخيط المبروم والإبرة .

وقامت على التو (مليحة) ، لتعلـــف الحـــلال في حجرتـــه، و تعطي الثور الجديد نصيب الأسد في هذا الاهتمام الأولي .

(٣)

أحمل نفسك على نفسك يا ابن أبيك ، أُزوجك بنت قومك .. تأكل ، وتعمل معنا في الأرض كما أيدينا تعمل .

وأينما وجّهت خطواتك نحو الرزق ، تعود معك الخير ، لن نبيع حلالنا ، ولا شبراً من قصبات مَدرنا، فسافر . . وتعال ، تتزوج ، يأتيك مع شِدْقها وأشداق ذراريها اللقمة وخير المال .

ألقى الشايب (عطية) بما أمكنه حمله من عدة الحرث ، أمام الدار في الساحة ، وكان (حامد) خلفه قد عني بما حملت الحمارة من عدة ثقيلة ، يسوقها أمام عينيه في طريق متعرج ، وفي اليد رباط الثور ، يسمع لأظلافه الزّلقة بين وقت ووقت ، إيقاعاً لا يشك السامع في أنه ارتطام الظلف بحجارة الطريق .

وعلى عمد ألقى الشايب ببدنه المنهك على الفراش الممدود في ركن الحجرة ، وقال : (آه يا عمري) ، ثم استدعى حفيده الكبير، وطلب قطعة دهن من جمع حليب البقرة ، يأخذها من الجدة، فجاء الحفيد بها على راحة الكف ، وكانت رائحتها تصنّ في الأنف ، كما يصنّ شعر الجدة المدهون في الشمس ، وقال الأب :

- (هات) .

ويشير إلى كعب قدمه اليمين المتشقق ، لطخ بها الحفيد، ومسح باطن الكف ، ثم دعا بصوته وإشارة يده إلى (صالحة) . لتكمل دعك قدميه ، فجاءت ، وقعدت متربعة وعلى حجرها قدما الأب المقشّرتان الجافتان ، ودعكت الدهن الأصفر القليل بقدر شديد على الشقوق الصغيرة في بطن القدمين ، وقد بدت كشعيرات متفرقة بيضاء ناشفة .

وقال الحفيد للشايب الجد ، (والجد والد) كما يقول لسان القوم ، تقول الجدة لأي نفر من أهل الدار :

- اذهب إلى أبيك .

تعني زوجها ، وتقول لهم :

- أبوكم .

الحفيد قال :

- يا أبي .. تريد إبريق الوضوء قبل المغرب؟

فهز الشايب رأسه هزة خفيفة إلى الأمام ، وجاء الحفيد إلى مشب النار ، وبيده إبريق الوضوء ، وملأه إلى النصف بالماء الساخن ، وخرج إلى موضع حنفية الماء في الساحة ، وملأ النصف حتى فاض ، وعاد به فوضعه قرب القدمين ، ثم خرج الشايب، و قارب بين خطواته قاصداً حدود الساحة جانب الدار ، وقعد قعدة من لا حاجة لقاعد مثله بإبريق في يمينه ، إلا (إراقة الماء) من مكان خروج الحدث الأصغر ، والاستنجاء ثم البسملة والوضوء .

وكان الابن قد فعل من قبل ، ولبس جبته الصوفية اتقاء للبرد، وإلى تجمع الجماعة القليلة حول ركن المسجد تقدم ، وكانت صلاة المغرب بوقتها المناسب لروحة الناس إلى دورهم ، بعد عناء

العمل ، تجمعهم في الغالب أما صلاة الجمعة فليس للغائب عنها من أهل القرية حجة .

و ...

جاءت على الناس دورة الأسبوع ، فدخلت الجمعة ، ألقى الكل أتعابه وغبار الأرض عنه ، وجاء مغتسلا نظيفا ، وإن غاب لعذر أو غيره ، فإن الكل يسأل ، وما أصعب على المرء أن يسأل عنه في مجمع أسبوعي ، فيقال تأخر، وهم يعلمون ألا عذر له .

وقال أحد المصلين من القرية ، بعد أن فرغوا من إتباع الإمام في الركوع والسجود والدعاء ، (آمين) بعد (اللهم) :

- يا جماعة الخير .. عندي يوم الخميس القادم عرس ، أحببت أن تتفضلوا صغيركم قبل كبيركم ، (الله يحييكم) .

قالوا أو قال أكابرهم بالنيابة عن الجمع الموافق :

- أعانك الله باليسر .

وعلم كل سامع للدعوة من أهل القرية ، أن عليه تقديم يد العون والمساعدة ، وليس الحضور فقط من أجل أكل اللحم والأرز، وشرب القهوة والشاي والرقص .

وكان صاحب العرس الداعي ، قد قضى بتزويج ابنه الذي جاء من السفر بعد عام في الغياب ، جمع فيه التكاليف والشوق ونية الزواج .

وكانت عروسته قد لعب معها أطفالاً ، وصبياناً ، مع الأطفال والصبيان ، وما لأحد من ذكر أو أنثى ، على الآخر في حياة أناس يعملون في المزارع في النهار ، وينامون في الليل ، ويقدر الصغير قبل الكبير زنده ورشده ، بعضاً لبعض ، إلا خير الذكر وطيب القول، فقال أبوه :

- نزوجك فلانة بنت فلان ، لا يعيبها عائب .

فقال الولد :

- الخيرة فيما اختاره الله ، وتختاره لي .

وكان منذ عام ، سافر إلى المدينة البعيدة ، وعمل بعد وقت معاوناً لسائق شاحنة ، لا يلبث بعد حين أن يصبح سائقاً بالأجر عند مالك سيارة في المدينة .

وقال أبوه ، كما يقول كل أب يعيبه انفصال ابنه بعد الزواج عنه .

عروستك بيننا ، في الدار بين أهلك ، تأكل مما نأكل ، و تشرب مما نشرب ، ومعنا تسرح وتمرح ، وبالسلامة أنت تســـافر وتـــدور عـــن رزقك ، يرزقك الله ، ويفتح لك باب النصيب والخير .

(٤)

نعـــم ..

ها إني يا نطفة ظهري أزوجك ، وبملء ما يملأ العين تجــهّزت، وبفيض يزيد عن حاجة وعاء البدن ، أكرمنا الضيوف ، ورنّـــت في الأذن الطبول ، وتكاتفت في المعونة أيدي الجماعة ، لا تعلـــو على اليد يدٌ ، ولا تغدو مع خطوة الجمل هاربـــةً إلى الأُذن زَلّـــةُ لسان .

اختلف المتفقون من أهل العروس مع أهل العريس ، فأهلها يـــرون في المسافة بين بيتهم وبيت النسيب بعداً ، ويحتاج البعد إلى جمل يحمـــل العروس رفداً خلف عمها أو أخوها ، أو خالها ، وخلـــف الجمـــل تمشي دفوف النسوة والزغاريد ، والأطفال دون الحلم من الصبيـــان والبنات ، يسبقهم الرجال ، والجمل ، جمـــل فـــلان بـــالأجرة أو (الفزعة) ورأى أهل العريس ، مع من رأى أن المسافة قريبـــة ، وأن (ما طاح من الشارب يقع على اللحية) فليس العـــروس مـــن دار غريبة ، ولا من قرية جارة أو غير جارة بعيدة ، وقالوا :

- تجعلون الناس يضحكون مـــن فعلتنا، الوقـــت وقـــت عمل ، نذبح ونطبخ، ونفرش المائدة، اليوم ، وغد ، وبعد غد .

ودخلت العروس عتبة بيت عريسها محمولة بالغنـــاء والدفـــوف والزغاريد ، وكانت تطأطئ بعينيها خجلاً أو مـــا يشـــبه الخجـــل، وحملت الأيدي جهاز بيتها الجديد ، وكان أزهى زهوة ، اللحـــاف الأخضر ، والطشت العريض والطاسة المدهونة بالطلاء الملون، وإبريق الفضة المعدني للوضوء الاستنجاء وشراب الليل من الماء، وصنـــدوق بواجهة من المرايا الصغيرة المدورة ، به بعض الثياب الخفيفة مع اثنـــين أو أكثر مطرزة عند ابن فلان الخياط المعروف بتطريـــزه الجميـــل ، وروائح الكادي تفيض من كل لبـــس ، وتتدلى بيضاء مصفرّة علـــى

جوانب الآذان من العروس وبعض الحاضرات، فالكادي جميل الخلقة ، طيب الفوح ، غال في القيمة ، ويشبّه به الجمال ، فتقول النساء :

- جمال فلانة "كَشِلْخة" الكادي .

وتقول فلانة :

- حُسْن علاّنة .. كَحُسْن الكادي .

وحطت الزفة جملها الذي فوق سنامه العروس إلى جانب خالها وخلفهما الجمل الذي يحمل الجهاز ، فناخ الجملان ، وغرغرا قليلاً وأنّا بملء شدقيهما ، واجترا بعض ما في بطنيهما ، ولاكا في فميهما الكبيرين شيئاً ، ثم تقابلا حتى ثبتا على قرصيهما والركبتين ، فهز أصحابهما ذيلي جملهما ، وجاءت سواعد الشباب ، وكأنها تحمل الثقيل ، تضع ما على الجمل من جهاز، وتذهب به إلى الداخل .

وكان الأطفال فراداً ومثنى ، حول الجملين يدنون ويبتعدون، يفرحون ويعجبون ، ويتداعون ويصرخون .

أما ما لم يعلم من المهر ، فكان شرطاً بين البيتين ، من المال لــــن يغدو فوق المتعارف المقتدر بين عرف الجماعة ــ و لم ، ولن يكــــون قد مسّ حدود الأرض أو البيت أو العار ، بقليل ولا بكثير ، فتلــــك فعلة لم يفعلها أحد من قريب ولا بعيد في الديار المعروفة .

وحيث أن الأمر لم يبلغ أبداً في شأن العرائس ، أن بيع شيئاً مــــن الأرض أو الدار ، فصاحب العرس مكتمل مقتدر ، لا يذهب ســــيرة شاذة فوق الْسُن الديار .

(ألا فليبارك الله في خطوها ، ومقدم ريحتها ، وفــــأل دخولهــــا البيت ، و وليمنح برزقه منها الخير والذرية الصالحة .. آمين) .

(٥)

على جرح بظهر الحمارة حطّ غرابٌ فما أبيـــضٌ ســواده القليل ببياض لونها العريض .

ماذا قال قلب الشايب في عقر الدار .

قال :

يشيب ريش الغراب ، ويطلع الشعر في باطن الكـــف ، ولا يشيب قلبك يا أبا فلان ، إلا إن حسرّت بك السنون عن ملاقـــاة زرع أرضك في الشتاء والصيف .

وماذا قال ارتياحُ الغراب اللذيذ على جرح الجلد الأليم ؟ ..

قال : هيا يا جناحاي واقلعا ، فحجرٌ بحجم قبضة الصبي تخيف هدأة المطمئن تحت شمس الظهيرة ، و .. طـــار فبقـــي معلقـــاً في الفضـــاء ، وبقي الفضاء رحباً مستوعباً لكل الأجنحة العائمـــة في فراغه ! .

ألا ما أعجبك يا دنيا

متوازنة .. متموسقة ، كونك كون ، و كائنك مكنون .

في الطريق الممتد كحبل ، وقد تناثرت على طرفيه الحجارة التي تزيلها الأقدام الصغيرة والكبيرة ، والحافية والمحتذية وأظلاف وحوافر السارح والقادم من الحلال ، وقفت حمارة بيضاء إلى الجانب قليلاً، وقد استكانت على قوائمها ، و أسكنت حفيف أذنيها ، ومدت رقبتها كغصن خريفي قصير ، وجمد ظهرها تحت وخز لذيذ لغراب في سراب الظهيرة ، ينبش في جلدها عما يملأ ملقاطه في مكان لجرح صغير من أثر الأحمال ، وقد وضع منذ ساعة عن ظهرها، فانطلقت بلا قيد إلى حيث ما هو خارج ساحة الدار في غير بعيد .

خرج الحفيد الكبير ، لشأن يقضيه إلى طرف الساحة ، فرأى النقطة السوداء الكبيرة تتحرك على ظهر الحمارة ، فعجب برهة ودنت يمناه من الأرض ، والتقط على قدر قبضته حجراً ، فطار الغراب قبل أن يصله الحجر ، ونعق عالياً ، وقت إذ نفخت الحمارة نفخة هزت معها أذنيها وذيلها ثم رفست كأنما تعترض وجمحت في طريق ليس أمامه إلا انحدار الوادي .

عاد الحفيد ملتحفاً بلفحة شمس الظهيرة ، وعمد إلى إبريق الوضوء قرب حنفية الماء في ركن الساحة ، فصب ما يزيد عن ظمئه حتى منتصفه ، وشرب من عنق الإبريق على دفعتين ، ودخل

من الباب النصف المفتوح في الهدأة ، فرأى كل الأهل ، ورأى الجـدة على سريرها مغمضة الجفن ، فحدث نفسه بسرقة واحدة من بيـض الدجاج في هذا الغياب الهادئ ، لكنه عدل ، فهدوء مثـل الظـهيرة يسمع فيه طنين الذباب ، سيسمع فيه صريـر بـاب المواشـي .. وليـدوّر على شاغل آخر .

فتش في مكان مشبّ النار عن شيء يسلي به فمه فما وجـد، وجاء إلى منام أخوته النائمين ، فاختلق النوم مدة ثم نام .

(٦)

وقالت المرأة خليلتها مزرعتها :

أنا امرأة مثلكم يا بني قومي ، لا ينقصني زند ، لعل في حـــدة لساني بدلاً عن (جنابي) الرجال .

لي حقي .. مثلكم وأكثر من بعضكم ، أحمي مزارعـــي الـــتي تكرمني حين بالذود والعرق أكرمها .

فهات عنكم إن كنتم من الحق منتقصين .

: تعدت حمارتكم على زرعنا .. ما تخافون الله .

- : لسانك طويل ، والحمارة ما عندها عقل .

- : قلت لكم ، ما تخافون الله .. أربطوها عن حقوق الناس .

- : أنتِ تكثرين الكلام .. كل حمير الناس وحلالهم تتعدى على حقوقهم .

- : كيف ؟ هذا بدل الاعتذار ؟

كان هذا الخصام الحاصل بين (صالحة) وواحدة من القرية، ينصب كاملاً في مسمع الحفيد الذي نبت من نومه مذعوراً وخرج إلى الساحة ، فلم يرَ أحداً ، لكنه أنجذب إلى سطح الدار نحو صوت الجدة .

- : سوّد الله وجهك يا مخلوقة .. احفظي لسانك .

وكانت المرأة تسبحل ، وتحوقل ، وتنثر عشواء الكلام على الجدة، و (صالحة) وأهل الدار ، وكان نفر من أهل القرية في وقت أفول القيلولة هذا ، قد سمعوا بعض الخصام ، وكان لا يتعب السامع في التعرف إليه ، فهو صوت فلانة السليطة اللسان ، والتي يتحاشى حد لسانها ، الصغير قبل الكبير ، وقليلاً خرج أهل القرية ممن سمعوا ، في ساحات دورهم وعلى أسطحها .

وكان الخصام يبدو في حدته ، إذ صعد الشايب (عطية) ابن حامد إلى الجدة و (صالحة) ، فأمسكا من يدي الجدة (رفعة)، وجعلا من نفسيهما ملتقى للسان تلك المرأة ، التي لم يسلما منها :

- : هيا .. ارفعي طرف ثوبك ، والزمي يد زوجك المخرف .

سحبت بانفعال الجدة يدها من يد زوجها (الشايب)، واندفعت إلى الأمام خطوة ، كأنما ستطلق كلمة أقوى من تلك التي أصابتها أمام العيون ، والآذان .. غير أنه .. أسرع والتقط قبضة من لباس الظهر المنحني قليلا ، وردع الجدة ، وهو يردد :

- : نساء .. نساء ، أدخلي يا مخلوقة، فضحتمونا .

وعادت الجدة خطوة إلى الوراء ، فكادت تقع على عجيزتها، وهنا جاءت بعض الضحكات من الناظرين ، فاهتزت النخوة في صدر ابنها (حامد) وعلى الرويد رفعها بذراعه ، بعد أن أفلتها في يد الشايب ، ولم تكن الجدة لتسمع ضحكات آتية من الخارج ، وإلا لسقطت من الغيض والانفعال من على سطح الدار .

وحيث أن فلانة تلك ، قد لمت بدون نداء ، أهل دارها إلى جانبها ، وقد صمتوا إلا كلمات قليلة ونادرة ، ولا تصل إلى كل المسامع .. إلا أن هذا أوجب الجدة وابنتها (صالحة) صفا من أهل الدار من الأحفاد و (مليحة) التي تركت ، رضيعها يصرخ في

المهد ، وهي تسمعه ولا تعيره كلمة في هذا الموقف ، سوى أنها تحرك رقبتها وقد غطت شعرها كعادتها ، بغطاء ابيض كبقية أهـــل الـــدار الذين صعدوا إلى السطح في انفعال واستكشاف أول الأمر .

هبط الشايب على السلالم الحجرية ، وبكلتا يديه جذب كتفي الجـدة في رفق وإصرار وكان الجار الذي جاء إلى دار الشايب (عطيـة) يقابله وبين يديه كتفي الجدة ، التي لم تهدأ تمتمتها، وصافحه مبتســماً ويتساءل في ثقة :

- : (يا بو حامد) .. عقلك كبير .

فيرد الشايب في انخفاض :

- : نعم .. نعم يا جار ، أنا لا أرضى بالخطيئة .. لكـــن بربك كيف أفعل بلسان المرأة إذا التقى بلسان مخاصمتها ؟ !

- : لم يحدث إلا الخير ، تعال .

وتسرب والجدة إلى الداخل ، وكان الباب مفتوحاً ، وتبعــــهما على مهل الجار .

وعلى الرغم من الجبهتين الكلاميتين اللتين تقارعتــا بالشــتيمة، فإن الحل المعروف في مثل هذه الأمور ، لا يستحق كل تلـــك الآذان الصاغية ، والعيون والألسن التي تهذر في هذه المناسبات ، ولكن مـــا وقع وقع .

وعلى صاحب الحمارة ، أن يعوض المرأة المشتكية ، والتي أغرقت كل أهل الدار في السباب ، تعويضاً لا يقل عن مقدار ما ذهب من زرعها في فم الحمارة ، مع تقديم الاعتذار على مضض، ولكن بعد وقت لن يزيد عن آذان المغرب .

وما لبث أهل الدار جميعاً ، أن هبطوا وفي حناجرهم كلام مكتوم، يهدأ بعد أي انشغال قصير .

وكانت (صالحة) هي آخر من دخل الدار ، ذلك أنها ترى كما يرى الغير من نساء القرية وقت السباب ، أن من يرفع الصوت عالياً فهو أجدر بالحق ، بدليل صموده وصوته الذي لا يدع للخصم وقتاً لالتقاط ما يقول .

و ..

هدأت الأصوات ، وعادت الآذان والعيون إلى مستقرها، وكانت الشمس هناك من خلف الجبل تزيد في حمرتها ، فيبدو الضوء الذي يغطي كل شيء في الدار، ينطفئ قليلاً وقليلاً ، مما دعا الجار إلى رفض تناول الشاي ، فالوقت يزحم حتى المستعجل، وطلب الشايب (عطية) من الجار الذهاب إلى المرأة ، لإجراء ما يلزم ، وأخذ الحمارة .

وقال الجار إنه سيفعل ، وكانت نيته على التو ، بالتوجه من حيث طلب الشايب ، و دعا إلى خلفه الحفيد الأكبر .. يقتاد

الحمارة ، أو يسوقها أمامه إلى مباهًا ، فليس من اللائق بشيخ كبير المجيء بالحمارة ، و لو كانت ثوراً أو بقرة أو خلافهما من الحلال، لأمكن للرجل اقتيادها أو سوقها في مصالحات كهذه ، لكن الحمارة (أعز الله الرجال) على كل لسان ، يقتادها الصبيان أو النساء .

و لم يكن الأمر ليساوي عيباً عند (حامد) ، فقد كان يسمع ما يجري من الحديث ، وقام إلى كيس حنطة ، من بين الأكياس المرتكزة إلى زاوية الدار على الحائط ، وافترط بإناء خشبي يوضع للكيل ، وملأه حتى تناثر ، ووضعه في فراغ قُفّة عريضة ، ووضع قرب الباب ، على يمين الخارج من الدار، وقد نوى الذهاب برجولته وحنطته ، ولكنه لم يشأ أن يأتي على نقيض ما رأى الأب مع الجار ، فتقدم حين نهوض الجار ، إلى الباب حيث قفة الحنطة ، وحملها بيد ووضعها فوق رأس ابنه .

(وما دامت الحنطة الحمراء قد دهنت كل خدش للشباب في صدر المرأة ، وجاء بالنيابة معتذراً جارهم الرجل الكبير ، فلترد الحمارة ومعها قوارع الوصية في مراعاتها من التعدي على حقها مرة أخرى ، وصايا لا يجب أن يسمعها الحفيد ، غير أنه سيقود الحمارة

إلى الدار، ولن يرد برد قصير ولا طويل لكنه سيهمهم بكلام داخل حلقه ، وسيشتم بقول يقوله في المرأة ، لا يعدو إلا خليطاً ومما يقوله الكبار فيها ، وسيلعنها هذه التي استفردت به فقرعت أذنيه بشوك السباب والوصية الخشنة ، في غياب أهله القادرين بكبرهم وألسنتهم ومعرفتهم إيقافها عند حد تعرف فيه أهم ليسوا بناقصين).

وكانت المرأة قد جاءت إلى رباط الحمارة فحلته ، واقتادها إلى حيث الحفيد الواقف عند مدخل ساحة الدار ، وسلمته السلسلة وهي تنثر كلامها منذ أن مدت ذراعها القوية إلى قفة من السعف صغيرة ، في قعرها حنطة حمراء تملأ عينها وتلجم فمها ، لكنها ويا لعذاب الحفيد ، لم تكن لتسكت .

وكانت الحمارة تخرج دفعة هواء عظيمة فتشخر وكأنما تطرد شيئاً عالقاً بمنخريها الكبيرين ، ثم هز ذيلها وتقاطر بعداً برائحة علفية مستهجنة ، وجذب الحفيد السلسلة من رقبة الحمارة معنفاً بصمت وعلى مضض و .. مضى .

وعلى باب حجرة الحلال ، كانت (مليحة) قد نفضت يدها من تقديم عشاء البقرة والثور ، ولم تشأ تقدم شيئاً للحمارة التي أخذت برباطها من يد الحفيد وطوته على عنقها الطويلة ، ثم ساقتها إلى حيث مباتها .. لكنها أجابت عن سؤال في النفس حول ذنب حيوان

لا ينطق ولا يعرف إن كان يأكل من حق أهله أو حق الآخريـــــن ، فملأت معلفها بالتبن ، وأقفلت الباب وإلى الدار على بعد خطـــوات مشت .

(٧)

"عصيف" كانت السنابل ، فاشتدت خضرتها، وتضافرت بالحنطة تيجانها .

ما أبهج عين نظرتها ، وما أرتع قلب حرثها فسقاها فقص قصبها ، وجمع نضج ما عاناه كنثار الذهب بين أصابعه .

كان الحصاد ، وأنتشر في الوديان أهل القرية .. يحصدون ويغنون فرحين واثقين .

فليرب – الله – ببركته ، كل حبة سنبلة ، وكل سنبلة ينبتن سنابل سبع ، وسبعين .

كان القوم جميعهم ، وبكل أهل دورهم ، قد نضحوا في الوديان والمدرجات يحصدون ما قضوا فيه شهورا من الحرث وبعض السقاية بالسواني في الأرض التي تكون بها الآبار ، وقضى الوقت إلى مرحلة تضافر الحبوب في السنابل ، ثم النضوج فتغدو الحبة مشتدة كاملة النضوج ، ترضي العين وترتع في القلب ، فحين "الصرام"، وتخشخش المناجل على أطراف الصخور ، وتعمل في عيدان القصب الصفراء ، التي ستدرس من بعد الصرام ، فتذري في الجرن ، حين الفصل بين التبن والحنطة والشعير .

وكان الشايب ،على وقت ترك فيه بين السنابل وقصباتها، (صالحة) ، و (حامد) وحفيدين صغيرين يحصدون ، كان برفقة (مليحة) و الحفيد الكبير ، يعملون محشاتهم في نبات الحلف النابت على حافتي نهير صغير ، يبعد مسافة ليست قصيرة عن موقع القرية ، وكانت الحمارة على الحافة أيضا ، تقطع بمجد أسنانها القوية عشبا أخضرا راويا وغزيرا .

ويحمل الحلفا إلى ساحة الدار ، فيصنع من خضرته الطرية، فتائل مجدلة توضع في حلبتها قصبات السنابل ، وتربط ، فتجمع القصب بسنابله ، وإلى مسطح الجرين قرب الدار ينشر ، ليزداد تحت ضوء الشمس الصيفية يباسا .

وها إن كل قاطني الدور من صغير وكبير ، في وقت الصيف هذا، يفعلون كما فعل الشايب وأهل داره .

وكانت الجدة التي خلفت أهل دارها ، قد قضت من خض حليب بقرها ، وأفرغت اللبن الحامض، بعد فرزه عن الدهن في قدر كبير ، وهزت مهد الطفل المعلق إلى الجدار في وتد الخشب، أحاطته بجمع من شتائم الكلام ، فهو كثير الصراخ ، ولا يدع لها ذهنا يفرغ إلى عمله ، ولم يكن الرضيع قد حاز على كل الشتائم، إذ لابد لأمه من أن تنال منه نصيبا .

وعلى أي حال ..

فلا وقت للكلام ، وعليها بكل نتفة بكل الوقت ، أن ترفع خبزة الحنطة الكبيرة التي فاحت رائحتها معلنة النضوج ، تنفضها من أعقاب الرماد ، وإلى جانبها طاسة من اللبن الحامض مغطاة بإحكام، وشيئا من السمن المذاب تضعهما في الزنبيل ، ثم تدخل غرفتها وتأخذ على قدر الحاجة بقبضة الأصابع ، شايا وحفنة سكر كبيرة، فالشاي لا بد منه بعد وجبة الضحى تلك ، التي يأكلها برغبة الشايب وأهل داره في الوادي ، و .. خرجت بعد إعداد كل الأشياء الجدة ، فأطلت بعينيها إلى منحدر في الواجهة على مسافة تبعد قليلا ، وجعلت الدار خلفها ، ثم نادت الحفيد :

يا فلان ، تعال خذ الفال .

وكان صوتها يبدو مجروحا ، يهتز بنبرة تتضــــح أنهــا لامــرأة متقدمـــة في السن . أما وإن كان ذكر الفال ، ومن بعده ســـيكون شرب الشاي والتدخين ، فإن الشايب قد سرى في صدره اغتبـــاط يسير ، فألقى على عيال داره كلامـــا طيبـــا ، فيـــه دعـــوة إلى الله (يعطيهم العافيـــة) وفرح الجميع ، وفرح الصغار أكثر ، وتـــأهبوا لاستقبال الفال .

(٨)

.. (يـــا ريـــاح البيـــض .. هـــبي
وانـــصبـــي عمـــدانـــهـــا) .

يا لذة الغناء بين ثمر الزرع ، يا لذة حفيف اللسان في وقـــت يختلط بحفيف قصب الحنطة في الجرن ساعة "الدياس" .

بعد "الدياس" ، نذري ما انداس ، فيخرج ذهـــب القصـــب، ويغدو القصب المداس لمن داسه في البيات علفا .

جرت أيام قليلة ، أيبست بنهارات صيفها حصـاد النـاس في "المساطح" ، فهيأت للدياس ، دياس بثوريـن ، أو حمـارتين لجـار وجـار ، على المحصول في ساحة "الجرين" المحدودة ، فيفصل الحب عن القصب ، ويغدو هذا حبوب قمح منقاة نقية ، ويغدو هذا تبنـا طعاما مستطابا للحلال على مدار الأيام ، وأيام الشتاء الـتي تمنـع خروج الحلال بمطرها وبردها ، إلا قليلا .

اشتعل الناس بالدياس ، وغنوا :

(جريننا وما فيه

وما ضمت حواشيه

والبركات آهي فيه ..

آهي فيه) ..

ومن بعد "الدياس" ، تفتت القصب الجاف ، وأختلط بـالحبوب منذ وضع فوق حزماته المبثوثـة علـى أرض "الجريـن" الحجـر ، والحجـر ثقيل يدرس المحصـول ، والحجـر يجـره الثـوران ، أو الحمارتان ، فيدوسان المحصول ، ويدوران على عكس مـا تـدور عقارب الساعة .

تفتت المحصول في "الجرين" ، وكان في يد من يلمـس ، علفـا دقيقا مختلطا بحبوب حمراء ، لا يتناطح اثنان بالرأي في أنها حنطة مـن طين البلاد ، أو علفا مختلطا بحبوب صفراء فاقعة ، لا تمـلأ العـين

كثيرا لكنها حبوب تخلط في الطين من الحنطة ، والشعير مع الحنطة يغدو (مشعورة) خبز البلاد طيب ، وحصاد عرق الأيام أطيب ، وفرحة كيل المحصول أكثر طيبا ، وأكثر جمالا واغتباطا. وذرى الناس على طرف الجرن ، في مهب ريح الجنوب ما داسوه، وغنوا :

(يا رياح البيض هبي ، وانصبي "عمدانها"

إن قومي حين تهبي ، ما ربح ديانها) .

كان الطقس بجوه الصحو ، وشمسه الصيفية يدفع الهمة ، ويملأ النفوس المرحة بالحماس ، فيعمل الرجال مع النساء كما يفعلون في كل الأعمال المستوجبة التعاون منذ بدء بذر الحبوب ، وكانت النساء تعمل بدقة وتعمل بلا انقطاع أمهر من الرجال ، وكان الأولاد الذكور في غياب صيفي قد عطلت فيه المدارس ، وكانت البنات على اختلاف العمر يعملن بحرص ، و ممن يكبرهن يتعلمن .

وكانت الجرن تبدو بكل أهلها ، متربة العين والبدن واللباس .

وكان الشايب (عطية) قد اتفق مع جاره ، فآخيا بين ثوره وثور الجار ، وداسا مرة هنا ، ومرة هنا ، فبقي في تقديرهما، كرتين هنا ، ومثلهما عند الجار . وكان تعب الدياس اللذيذ، يربض في الأيدي والأقدام ، فيربض في الجفون نوما ثقيلا في الليل،

وما يكاد أذان العشاء يصل الآذان ، حتى يكون النـــاس ارتمـوا في مخادعهم .

يوم بين أيام العمل ، يجب أن يرتاح فيه ابن آدم ، ويرتاح فيـــه الحلال ، وينصرف الكل إلى شأن آخر قصير ، أو الراحـــة داخـــل الـــدار .

وكانت الجدة تشكو كثيرا من عمل البيت ، ومراعاة الرضيـــع، فيأتي الليل وتملأ جلسة أهل الدار وهدأهم بـــالتذمر ، فعمـــل هـــذا الصيف طال ، والسن المتقدم لا يساعد على النشاط ، وهناك البقـــرة وإدارتها ، فكانت تشكو من المفاصل ، وتشتكي مما تسميه بريـــاح تغزو رمانتي قدميها فتعوقها ، ومرة تشكو وجع الـــرأس ، ومـــرارا تتوهم من كل عضو في البدن .

وكانت (صالحة) تحضر نتفة من دهن البقرة ، أو قليـــلا مـــن سمنها الجامد ، فتدعك قدمي الشـــايب ، وهكـــذا كـــانت تفعـــل (مليحة) (لحامد) في بعض الأحيان . وكان (حامد) الذي يمنـــح كل قوة شبابه الثلاثين ، على مضض يشكو ، ويمد ســـاقيه اللتـــين تشبهان ساقي الشايب في نحفهما واستقامتهما وغزارة شعرهما ، وهو به شبيه في كامل التكوين ، فشوارب الأب ، هـــي ذات شـــوارب الابن ، تتمدد عريضة ممتلئة ، تحتل كل مساحة فوق الشفة العليـــا، وتتراخى قليلة إلى التقاء اللحية ، فتحوطان الفـــم العريـــض ، ذي

الشفتين البعيدتين عن الغلظ ، ولا فارق في منابت الشعر ، غير بياض كثيف إلا قليلا عند الأب ، وسواد فاحم عند الابن .

وكانت أيديهما خشنة ومعتدلة الأصابع ، يكسو ظهرها شـــعر أسود جميل . بعناية ينتصب أنف الابن في غير فظاظـــة ، وتشـــتبك شعيرات قصيرة كثيرة الالتواء ، بغزارة الشـــاربين مـــن الفتحتـــين، ولعـــل تشابه الأنفين ، والعينين الغائرتين العسليتين ، تسهلان علـــى الناظر إلى الوجهين البت في أنهما يرتبطان بقربى شديدة القرب .

ولم يكن الابن قد أخذ عن الأب الحدة في الطبع ، ولا الحرقـــة على ما لا يرضي النفس ، فقد كان يميل إلى التحديـــق في كـــل الأمور ، الهامة منها والضئيلة في الاهتمام ، و لا يحب رفع الصـــوت عند الحديث ، بل كان يناسل الكلمات في بطء وهدوء ، ولم يـــأخذ عن الأب عادة التدخين ، التي تغري أو تلزم من يرافق صاحبها ، منذ الصباح إلى المنام بتقليدها ، وكان في أحايين يقول كلمـــة طيبـــة، داعيا الله للأب ، "يعيف" نفسه عن هذا النفس الدخاني الذاهـــب في الهواء .

وكان يشد وسطه قبل خروجه من بـــاب الـــدار ، ب هميـــان جلدي أحمر ، به جيبان صغيران، يحفظان ما تفرق من نقود معدنيـــة أو ورقية قليلة ، ويحوي فراغ أحدهما ، على مقلم للأظـــافر ، وقـــد عثرت الزوجة على حين دون مناسبة ، على قطع بيضاء ، لا يزيـــد

حجمها على بصمة الإبهام ، كورق السيجارة ، وأجابها بعد السؤال ، أنها عش العنكبوت ، يوضع على الجرح فيبرأ ، وهذا ما كان يحرص عليه وقتما يعمل مساعدا للبناء يصيبه من حجر جرح، أو من معه .

على حين كان الأب لا يحل حزم وسطه ، إلا في وقت يخلد فيه بدنه إلى الراحة ، وكان حزامه يحمل خنجرا مستعرضا ما بين تدلي اليدين من الجبين ، هي السلاح وهي الحزام ، وعند سائر القوم بالغة الاهتمام ، ولا يكاد يخلو واحد من (الجنبية) في المسراح، و في المراح .

وقد حدث أن كان الأب في (مجرة) البئر ، انفلت شئ من عدة السقاية تلك ، فتراجع الثور ، وكاد يسقط في حفرة البئر ، لولا عناية الله وفضل (الجنبية) ، إذ استلها الأب على عجل ، وقطع الحبال ، فنجى الثور .

ولو أن أمرا كهذا أو ما يشبهه وقع ، لأحتج أهل القرية من القاصي إلى الداني ، كرجل واحد ، ولأصلحوا ما تعثر بيد واحدة .

وكانت (الجنبية) لا تفارق وسط الأب ، كغالب بقية الرجال ، حتى أنه يجد في ملمس يده ، وفي تكامل شخصه، نقصا عائبا ، وفقدانا لشيء لا يمكن الاستغناء عنه. أما العصا ، أو (المشعاب) فهو الرفيق في كل خطوة تتجاوز عتبة الدار .

وكان يختبئ في جيب الثوب الأبيض الفضفـــاض ، (علبـــة) السجائر ، التي حلت مكان (العلبة) المعدن القديمة ، الحاوية علـــى "التمباك" الأخضر المفرّط ، والورق الرقيق .

(٩)

شبت حارقة الهواء في المحصول ، فأكلت حـــواف القلـــب، وساح وجع النفس في كل فحمة سنبلة ، ونفرت العروق بدمــــاء تنضح منها الحسرة .

ولكن أرضنا في قوادم الأيام ، آتية لا ريب .

- : اليوم رياحه طيبة .

قال الشايب لـــ (حامد) ، وكان يومئ إلى أن هبوبها الزاحــف من الجهة البحرية ، مناسب لمن يذري المحصول في (الدياس) .

تطلع (حامد) بعينين غائرتين قليلا ، نحو الساحة من النـــافذة، إلى حيث مرتكز نظر الشايب ، ثم أومأ برأسه مدعما .

وكانا يجلسان قرب النافذة ، وقد جمعــــهما إبريـــق الشـــاي، وحديث عن المحصول ، لا يلبث أن ينتقل إلى ذكـــر فـــلان ، ومـــا يمكـــن أن يجني من المحصول فلان ، فيذكرا أن فلانا أرضـــه قليلـــة، ومحصوله جد محدود ، وفلانا لعجز ما فيه أو في أرضه وحلاله ، جـنى اليســير ، وقررا منح من يحتاج ، شيئا من خير هذا العـــام ، قـــال الشايب:

- نفرز كيسين .. نعطي منهما ، ونبقـــي (عشـــر) المحصول .

وجرى أحد الأحفاد ، خلف دجاجة دخلت الدار ، فـــأحدثت زوبعة عالية ، وأهبت جناحيها ، فكانت تنـــط نطـــات قصـــيرة، وتـــدور في كل اتجاه هاربة ، فصاح الشايب :

- أخرجها لا تدعها تسرح في البيت .

وكانت الجدة في غياب عن هذا الحث ، الذي يستوجب منـــها كلمتين متذمرتين ، إذ قد حان موعدها مع ضــــرع بقرهـــا منـــذ

وقـــت، أخذت فيه عدتها وذهبت تجمع الحليب ، فـــالوقت يبـــين للناظر ، أنه يخلف صلاة العصر بقليل .

دس الشايب يده في جيبه ، ليخرج (علبة السجائر) ، فقطـــع عليه صوت حاد من الساحة :

- (يا (بو حامد) . يا (حامد) ، يا عيال .

نهض في اندفاعة المباغت (حامد) ووقف بكامل حدسه علـــى عتبة الدار ، فكانت العروس التي تزوجت قبل حصـــاد الموســم في القرية ، تلح قادمة نحو الدار، وتكرر :

- يا (بوحامد) . الحقوا .

وتضيف عاليا :

- القبس .. القبس أكلت العيش .

اهتز قلب الشايب ، ونفر من قعدته ، وكان يصوب اندفاعتـــه نحو الباب ، ويوسع خطواته قافزا كأنمـــا يثـــب ، فـــترتطم قدمـــه بفنـــاجين الشاي ، وكان أحدها مملـــوءا ، فتدلقـــه ، ويضـــرب الفنجـــان بالإبريق ، فيندلق بحثالته ، وتدق الفنـــاجين في بعضـــها، فتحدث قرقعة جد مسموعة، لا يظن السامع بأن بها فنجانا سالما .

و لم يقف في اندفاعته تلك على عتبة الباب ، بل جرى إلى وسط الساحة ، وعيناه تكادان أن تخرجـــا مـــن محجريـــهما ، وامســـك العروســـة من كتفيها وهزها بعنف كاد يسقطها ، وكـــان يعصـــر

أعصابه ، ليجـد مكانا للسان كي يسألها إن كانت قد بلغت أحـدا، أو سمع الصوت المستغيث سامع .. غير أن البغتة لم تمهله ليفتح فمـه، ودفعها فازدادت فزعا على فزعها ، وهرول ينهب الطريق الملتوية من خلف الدار إلى (المسطح) .

أما (حامد) فكان قد لحق بلا تردد (الشـايب) وهـرول حافيا ، فسقطت مع إلتواءته العمامة ، ووقعت من فوق الرأس إلى ما بين القدمين ، فكاد يقع ، ولم يلتفت ، بـل عمـد كالرميـة إلى (المسطح) فكان مجمع المحصول .

وكانت (مليحة) تجري إلى الساحة ، وبلا مقدمات في القـول، وقفت أمام العروس ، تسألها عن الحريق متى شاهدته ، وتدعوهـا في عجلة لحمل قربة الماء ، والاستنجاد بـالصوت في نسـاء القريـة، لحمـل قربهن وملئها من أقرب بئر .

والتقطت (صالحة) تلك الدعوة التي أسلتها زوجة أخيها علـى العروس ، فصعدت درج السطح ، الذي لم تعد تعـرف إن كـانت مرت بدرجاته السبع ، وصاحت :

- أفزعوا .. حريق ، حريق .

وكانت تمدد صوتها الحاد ، فيكاد يبلغ القرية مـن الطـرف إلى الطرف .

وإذا انحدرت في غير هدى من درج السطح ، ارتطمتا بالجدة (رفعة) التي خرجت فاغرة فاهها ، تاركة قدر الحليب دون غطاء بما حوى ، وكادت من لطمة جسد(صالحة) بها تترنح ، لولا أن أثر الوقعة قد جعل من بدنها خشبة واقفة ، وقالت في حدة مبحوحة :

- هيا ، خذي القربة واتبعي النساء .

وجاءت (صالحة) تختلط بها الخطى إلى وتد القرية قرب مكان الطبخ بركن الدار ، فلم تجدها ، وكانت (مليحة) قد خطفتها منذ هنيهة ، ونشبت بين الأواني القليلة ، فنزعت القدر الكبير ، وكان منكبا على فوهته نظيفا وخاليا من الدرن ، وجاءت بغطاء الحنفية ، وغطت القدر فامتلأ ، وحملته بمائه المتراطم على رأسها ، ثم جرت به ، وكان ذراعاها قد لقيا غرقا بالغا من فيضه .

أما الجدة فلم تعد تدر ما تصنع ، ودارت حول نفسها دورتين، فرأت (صالحة) تهبط في سباق مع قدميها ، حاملة قربتها ، ومعها نساء لم تدرك الجدة عددهن القليل ، وتغيب بما يعتلي رأسها نحو (المسطح) فتبعتها ، وكانت تتلكأ في وضع قدميها المنتعلتين ، وتبدو خطواتها مثقلة مفرغة الحيل .

وبلغ جميع أهالي الدار (المسطح) الذي تعلو ناره كرقاب الإبل ، وكان الأحفاد و الأولاد يحثون التراب من الجانب المعاكس للرياح ، فلا يطفئ التراب إلا لهبا قصيرا في الطرف،

وامتدت بعض الأيدي تحمل ما وصلها من القرب أو الأواني ، أما البقية فكانوا يوجهون حاملي الماء ، ويزعقون مستحثين النساء في استعجال الأخريات من على البئر .

وادلهمت الجدة وهي تردد :

- (قطع الله إيدي .. قطع الله إيدي) .

ويقترب منها (حامد) ، فيجذب طرف ثوبها ، ويدعوها تبتعد عن النار التي تقترب من حلقة الواقفين في أسرع من لمح العين، فيجد في الجدة ثقلا غير معهود ، ويمد كلتا يديه مشددا على قبضته في إصرار شديد .

أما الشايب (عطية) الذي تقدم الجميع ، فقد انتصب دون (الجنبية) ورفع ثوبه إلى المنتصف وشده مقابلا بين طرفيه في عقدة ملموسة ، وألقى بالقدر من فوق رأس (صالحة) بمحتواه .

كانت النار في عناد تتطاول وتشرب الماء فلا تموت ، وكانت تأتي على القصب بسنابله فتحدث شعيطا ، وكأنما هي في شوق إليه.

وجاءت دفعة من النساء بالقرب المملوءة ، فأفرغتها الأيدي، وهدأت النار قليلا ، ثم ما لبثت أن طشطشت على مهل وخبت .

وجاء (حامد) بقربة مكتترة ، وصبها على الحواف المتفحمة، وكانت الحلقة الجماعية تلملم وقفتها فتبدو كدائرة تنقطع بالأولاد من طرفيها ، وتتناثر كلمات المواساة :

- راح الشيء وسلم بني آدم .
- دفعا وصدقة عن الحي .
- قطع الله إيد اللاش .
- ما حصل إلا كل خير .
- العوض في التوالي .

تسحب الجمع مثنى و فرادى إلى دار الشايب (عطية)، وعلى عتبة الدار خلعت الأحذية ، وارتكن الرجال إلى طرف الحائط قرب النافذة مكان جلسة الضيف ، وعلى حين ذكر ما تشابه من الحادثة ، كان السؤال ينتظر معرفة الفاعل ، ولم يكن شك ليقع على فاعل في القرية ، فأجمع انها فعلة طفل عابث ، وهذا ما يحدث في الغالب .

وجيء بالقهوة ووزعت بين كل القاعدين . وكان مشب النار والطبخ يلم حوله حضرة مولعة بالحديث المختلط من النساء ، وقد نلن دلة كبيرة من القهوة ، امتازت عن قهوة الرجال بحوارق الجتربيل والقرفة ، وكن يشربن فناجينهن دون رشف ، على خلاف ما يفعل بشرب القهوة و الشاي الرجال .

وكانت الجدة (رفعة) تقتعد حشوة ترتفع عن الأرض قليلا، تكتتر ببقايا عتيقة من الخلق والملابس القديمة ، وتمد يدها القصيرة بخواتمها الفضية الغليظة ، وبين إبهامها

وسبابتها فنجان القهوة الذي دلقت محتـــواه ســاخنا في جوفـــها، وكانت لا ترضى أن تشرب القهوة في غـــير فنجانها المعــروف، وتناولت (صالحة) الفنجان من يد الجدة وملأته حتى فاض ، وجـــاء شيء من فيضانه على يدها فأحست بلذعتــــه وأغمضــت عينيـــها المهدبتين ، وكذا امتدت يدها تأخذ فناجين النساء الفارغة ، تملأهـــا وتقدمها .

وكانت (مليحة) تلج مع الحـــاضرات في وجيـــج الكـــلام، وتحدس أن رضيعها المعلق في المهد يصرخ ، فيضيع صراخه بين هـــذا الطنين المختلط ، وتقوم إلى المهد فتهزه ، ثم تدنو منه فتجـــد ابنتـــها تغرق في النوم ، وتعود فتجلس في مكان غير الـــذي كـــانت بـــه، وتـــجد عجيزتها قد وطأت جانب المرأة التي تعارك معها بالســـباب أهل الدار وقت تعدي الحمارة على مزرعتها ، وكانت المـــرأة قـــد جاءت بقربتها مع بقية النساء ، فتدخل معها في جعل الحديث الـــذي ابتدأ من وصف حدوث الحادثة ، وجرجر الحديث ظفائره ، فتذكـــر أن العروس ، التي وصفتها بالصبية المكتملة العاقلة .

وكان الأحفاد مع الأولاد في الساحة يلعبـــون الكـــرة ، وقـــد صنعوها من قطع القماش القديم ، وأحسنوا ربطها فبـــدت كعقـــدة كبيرة مضغوطة ، وكانوا يتمنون لو أن مغيب الشمس ينسى عودتـــه فيتأخر ولا يجئ على استمتاعهم لذة الجمع واللعب ، وفيـــهم كـــان

واحد لا يزال يعيش مع قلبه حواراً مرتعشاً ، حول لعبه بالنار التي أحرقت المحصول ، ولامه هذا الجمع ، وما لبث أن تناسى الامر باعتيار أن الفعلة ضاعت بين من لا يعرف لها فاعل .

مضت ساعة ، مضت معها ذائبةٌ صفراء وشمس ما بعد العصر، وكان على النساء أن ينصرفن إلى بيوتهن .

وعلى الرجال أن يتهيأوا لحلول وقت المغرب ، ويخرج من لم يكن على وضوء إلى الساحة ، أو إلى بعد قريب من الدار، يستنجي ، يسبحل الله ويُحَمْدِلُه ، ثم يغسل يديه ثلاثاً من إبريق الوضوء ويسبغ وضوءه كاملاً .

وكانت الأباريق التي زاد عددها عن الخمسة ، تنقص عن حاجة المتوضئين ، فيأخذ بعض الواقفين من بعض ، و .. إلى المسجد القريب ، كان المؤذن قد سبق القوم ، وجعل ينتظر بكلتا أذنيه صوت مؤذن القرية المجاورة ليزعق بأرفع الصوت :

(الله أكبر) .

قام الشايب (عطية) من مجلسه ، وكان آخر القائمين ، ولم يحتج إلى تجديد الوضوء ، فطهارته التي نشفّت معها من الواقعة سوائل جسمه ، لا تزال على عهدها ، وتبعه (حامد) والحفيد، ومشى الثلاثة على قدر المقام إلى المسجد .

ولما قضى الفقيه بالناس صلاتهم ، خـــرج المصلـــون فـــاحتذوا نعالاتهم ، ورددوا كثيراً من (يعوضك الله خير (يا بو حامد) .

فيشكرهم الشايب ، ويشكرهم (حامد) ، ويبدوان هــــادئين كعاصفة بعد سكونها ، ولم تَجْرِ سيرة يتقاسم فيها الجماعة واجـــب تعويض ما شبّته الحريق من محصول " أبو فلان "، فالكل بـــلا أدنى تردد، سيعوض من محصوله بلا وصية من أحد .

وكان هذا مفعولاً ، وقت إذ امتلأ ركن الـــدار ، بمـــا حملـــه الجماعـــة من حبوب حصادهم بعد الدياس ، ولعله كان يزيد عمـــا أكلته النـــار، غير أن ناراً صغيرة بقيت تنوء بلذعتها بين حين وحـــين في قلب الشايب ، وتلحق بلذعتها قلوب أهل الدار جميعاً .

فحنطة المحصول الذي ترعرع مع التعب منـــذ بـــذره ، ليـــس كمحصول جاءت حنطته جاهزة ، ولكن يجري الأمر كمـــا يجـــري على لسان الشايب (عطية) .

(عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) .

وليعوضه الله عن كل حبة ســـنبلة ، والمواســـم القادمـــة آتيـــة لا ريـــب (.. حفظ الله عليه عافيته وعياله وحلاله) ، وكذا كانت الجدة (رفعة) تدعو بعد قراءة التحيات خلف آخر سجدة في كـــل صلاة .

(١٠)

هز الشايب سراويله البيضاء الطويلة تحت الثوب ، ودحس بالقدمين جنبي حمارته البيضاء ، فمرقت هابطة إلى السوق ، في صدره مقاضي البيت ، وفي أنفه ريح الكادي والبعيثران ، بقليل المال "يتسيوق" ، وبقدر ما يمكن الحصول عليه من الحاجة يتزين .

دبت شمس الصبـــاح إلى داخـــل الدار ، ومـــن المصـــراع والنافـــذة انتشر ضوء مبهج ، وجاءت (صالحة) بدلـــة القـــهوة، وصحن صغير على حافته بضع تمرات ، وغطت مســـاحة الصحـــن الباقية قطعة ممتلئة من الخبز الأسمر ، وكان الشايب الذي مد يـــده إلى شقفة من الخبزة تلك قبل التمر ، يحب هذا اللون ويتلذذ بطعمـــــه، صحيح أن لون وطعم خبزة الحنطـــة يمـــلأ العين والقـــلب ، إلا أن لخبزة (البلسن) مذاقها وجمال رائحتها ، وما دامت من العدس البني الخالص ، وقد ترعرعت تحت تعب عناية ورعاية الشايب وكل أهـــل الدار ، فإن جمالها في العين وفي الفم لا يضاهيه طعم وحلاوة التمـــر . وسأل الأب (صالحة) :

- : صحي أخوك من النوم ؟
- : سمعت (مليحة) تفتح باب عليتها .

شرب الشايب فنجان القـــهوة الأول ، وتنـــاولت (صالحـــة) الفنجان الفارغ لتملأه ، وجاء (حامد) مصبحـــا ، وقعـــد قـــرب الشايب ، تناول فنجان القهوة من أخته (صالحـــة) ، وقـــال إنـــه أحـــس ببعض البرد ليلة البارحة ، فزاد الشايب بمعرفتـــه أن الأيـــام تدور والخريف يمضي كما تمضي العشية وضحاها ، وعلى الابـــن أن يزيد من الوصايا على زوجته لتدعم أبدان الأولاد بـــالملابس ، وألا

تعتمد على رفضهم لها، فدمهم كما يقول الشايب ، وتقول الجدة (فاير) ولا يحسون بالبرد الذي يدخل العظم وهم به يستهترون .

أوقد الأب رأس سيجارة ، واجتر نفسا طويلا ، ودبت أصابع يمينه إلى مخفض الصوت ، فأرخى صوت المذياع الذي كان يقدم برنامجا صباحيا تتقدمه أغنية طيبة اللحن للمغنية التي يسمعون بها بـ (أم كلثوم) و (أم كلثوم) ، وعلى أي حال فصوتها الغنائي الجميل في ترحيبها بالصباح : (يا صباح الخير) ، وهو مقياس للوقت بأن الساعة هي السابعة قبل الضحى .

قال الأب للابن وهو يعجن ذيل السيجارة في ساحة صحن عتيق لنفض السجائر :

- : بارك الله فيك .. أسرح الوادي، وطوف البلاد ، وتفقد الأرض بعد الصرام .

والتفت إلى ابنته وقال بشيء من الدعة :

- الله يحفظ صباك .. شدي الخرج على ظهر الحمارة ، بودي أهبط إلى السوق .

نهضت (صالحة) ، وشدت على الحمارة بردعتها والخرج، وجاءت الجدة ملتحفة برداء أبيض يغطي رأسها والصدر ، وأوصت الأب أن يشتري لحما ، وبصلا وسكرا وقهوة مع مستلزماتها ويشتري دون وصاية بعض النواقص التي لا تخفى عليه ، ولن يفوته

رضوة الأحفاد من الحلوى ، أو بعض الفاكهة إن وجد ما يناسب ذوقه لأهل الدار .

وحيث أدارت الجدة خطوها ، تذكرت شيئا مهما كانت (مليحة) قد بلغته لها منذ البارحة ، فقد نفذ مع التقتير حليب الرضيع ، وقالت الجدة :

- حليب النصارى ، ليس به بركة .. مثل الطحين ، وطعمه مثل السكر .

وأضافت على بديهية كانت ستفقد منها :

- بودي لو أن رضعتك تتحمل حليب البقرة ، لكن كله دهن .

وليعلم الله أن كانت (مليحة) قد صدقت هذا العذر ، أم أنها أرادت بأكبر من صبرها الابتعاد عن إثارة الكلام ، إذ كانت صامتة تشغل يديها بترتيب أوان قليلة قرب مشب النار ، كان الأحفاد قد تناولوا فيها خبزة الإفطار مع القهوة والتمر .

اقتاد الشايب (عطية) بالسلسلة رقبة الحمارة ، وأوقفها إلى حجرة منخفضة قرب ساحة الدار ، ثم رفع ثوبه قليلا ، فبدل سرواله الأبيض الطويل ليغطي الساقين إلى الكعبين ، واعتلى ظهر الحمارة ، ثم هز السلسلة فجلجلت في الأذن ، واندفعت الحمارة في الطريق الطويل بتوجيه قليل من عصاة خفيفة في يده .

ساق (حامد) ساقيه الطويلتين إلى الوادي ، وقد أحكم ربط هميانه ، وأسند برفق ذراع (المسحاة) على كتفه .

أما وإن الجدة (رفعة) لن تحمل قدرها الصغير إلى ضرع بقرتها إلا قرب الزوال ، فإنها ستحضر (مخاضة) الحليب ، وتبدأ تهزها فتوجوج في الصمت الصباحي حتى يظهر الدهن بشوره الصفراء الصغيرة فوق اللبن .

وستأخذ (مليحة) برفقة (صالحة) نعليها الواطئتين ، إلى حجرة سبات الحلال ، تجمعان الروث ، وتدلقانه مع ذكر اسم الله في مكان توليفه.

وعلى من المهد السكوت والانتظار حتى تفرغ الأم ، أو الصراخ حتى ينشق حلقها .

وخرج الأحفاد إلى الساحة يرعون الدجاج برعايتهم من الكلاب ، أو الثعالب المتسللة من الخفاء ، وإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فالحماية من الحداءات التي تخطف الفراريج لازمة صدر الأب من السوق ، فاستقبلته فرحة الأحفاد ، وردعت الحلوى والفاكهة القليلة ذوب لعابهم ، ونالت .. (مليحة) من الفاكهة حبتين ناضجتين ، وكذا جاء نصيب (صالحة) ، وقضم (حامد) خوختيه على عجل ، أما الجدة فإلى حاصل النصيب نالت أعوادا طرية من (الريحان) و (الكادي)

و (البعيثران) ، مثلما نالته (مليحة) أو العانس (صالحة) ، أو أكثر مما نلنه قليلا ، وقالوا جميعا للأب :

- : (كثر الله خيرك) ، ومد في عمرك .

وأضافت في صوت منخفض (مليحة) ، كثير من الشكر على حليب الرضيع الصناعي .

قام حفيد إلى صنبور الحنفية ، وملأ إبريق الوضوء بطلب من الشايب جاء على هيئة إشارة ، فخرج الشايب إلى طرف الساحة، سبحل وطرد بذكر الله خبائث الشياطين ، واستنجى وتوضأ ، وتحت انهمار يسير من ماء الصنبور ، توضأ (حامد) وغسل الحفيد كفيه ووجهه ثم أكمل وضوءه ، وجاء خلف أبويه جماعة يصلون الظهر في الدار .

قال الشايب :

: والله ، إن خير الطعام ما شاركه ضيف .

وكان الغداء تفوح لذاذته في الدار ، وتعلم رائحته أن مكنونه لحم ومرقة .

أوصى الشايب حفيده ، يذهب إلى الجار يدعوه للغداء ، وجاء الحفيد حاملا الموافقة السريعة .

سأل الجار عن أخبار السوق والناس ، وكان الجواب من الشايب كما تجري العادة على من يهبط إلى السوق من قرى القبائل:

- لا جديد ، ولا مفيد ، الأسـعار ، والبـلاد تسـوق خيراتها.

كان وعاء البطن قد دفئ بالخبزة الساخنة والمرقة وبعض اللحـم، فطاب الحديث وخملت دوافع الجوع ، فسأل بالتفصيل عن أسـعار الحلال ، والحبـوب ، والقمـاش ، وعـن القطـران ، واللحـم، والكـادي ، و قال في بعض شكوى :

- : تذكر (يا بو حامد) .. بقرتنا التي ذبحتها وتصدقـت بلحمها .

قال الشايب (عطية) ، وفي يده سيجارة يتوهج رأسها :

- : نعم .. يا جـار ، تقبـل الله منكـم صدقتكـم ، وعوضكم خيرا عنها .

أشعل الجار في بطء أشد من البطء ، سـيجارة ، ونـثر مـع الدخان من فمه :

- : طيب (يا بو حامد) ، لكن نحتاج إلى بقرة ، تبل طعامنا ، وتأكل من خير الأرض ..سأهبط في الدور الآتي ، أدور على بقرة طيبة .

وكان الحديث في شأن كهذا جدير بمعرفة الشـايب ، وكـان (حامد) يستند على وسادة مرتفعة ، وبين حين وحين يعلق بكـلام

قليل ، فيدعم الرأي بأن البقرة في البيت لا غنى عنها ، وأن القيمة فيها مهما تكن غالية ، لا تغلي عليها لمنفعتها وشدة الحاجة إليها .

وجاء الحفيد الأكبر بإبريق الشاي ، وقعد متربعا يصبه في الفناجين على مهل ، فيجخجخ الشاي وترغوي على امتلائها رغاو بيضاء صغيرة ، ساخنة وتنفث أمام العين مع البرد بخارا ، كذاك الفوح الذي يخرج في الشتاء من الفم حين الكلام .

وفي مكان يحيط بمشب النار والطبخ ، كانت الجدة (رفعة) و(صالحة) و (مليحة) وحفيدين صغيرين ، يتوازعن الشئ ، بعد أن فرغوا من استمتاعهن بغداء لا ينقص في شيء عن غداء الشايب و (حامد) والحفيد الأكبر والضيف .. بيد واحدة من صحن واحد : هنا وهناك .

وحيث كانت رائحة اللحم والمرقة تدخل كل أنف قريب . تجتذب أنوف القطط أيضا ، فقد نالت قطتان ، قطة ولود ، وقط مقطوم الذيل ، لسبب غامض ، نصيبا مرضيا من البقايا ، أعلنا عنه على هيئة قريض مسموع العظام .

أوشك وقت الصلاة أن يحل إلا قليلا ، وكان على الجار أن يجدد الوضوء ، وسأل عن الساعة في وقتها، والتفت (حامد) إلى الجدار الذي يستندون إليه ، فلمحها بعقاربها الشبه المضيئة الخضراء، تكاد تلج ساعتها الثالثة والنصف عصرا ، وكانت الساعة المعلقة

بحذر على مسمار كبير ، تدق دقات رتيبة لا عوج فيـــها ، وكـــان إطارها الفضي قد فقد لمعته عبر الأيام وتراكـــم دخـــان الحطـــب والسجائر عليه ، ولم يكن يلمسها كل من شاء من أهـــل الـــدار، فقـــد كانت عالية عن الأحفاد ، وإن كسرت أو حدث لجـــهازها عطب ، فلا شك أن أهل الدار جميعا سيبقون في وقت ضـــائع دون قياس ، وهم الذين يعرفون قيمتهـــا أبلغ ما يعرفـــون ، وقـــت إذ تنبههم بجرسها القوي وقت السحور في رمضان .

صحيح أن الجدة لم تربط شئون وقتها بها ، إذ كـــانت تقيـــس بأذان المؤذن حين الظهر ، وحين العصر وكذا المغرب ، وتحضر عـــدة ضرع بقرتها في وقت ترى فيـــه ضوء النهار ينسحب من الـــدار، أو بخروج الشايب ومن معه إلى صلاة المغرب .

و ..

وسأل الجار مضيفه :

- : ما أدري يا (بو حامد) ، ألاقي عندك شفرة لحلاقـــة رأسي ؟

- : أبشر بالسعد ، اليوم اشتريت خمسا .

وحك الجار مقدمة رأسه القليل السواد ، وربت أصابع الكـــف رويدا فرفعت (القبعة) ومال العقال العريض جانب الرأس ، ثم مـــا لبث أن سقط ومعه العمامة ، وبدا رأس الجار فقيرا من النبـــت ، ولم

يكن الشعر في قصره يدعو إلى حلاقته ، غير أن حكة تبتليه بين حين وحين .. (قاتل الله الحكة وسلم حد الشفرة ، وليأخذ العقال بما تحته مكانا بعد الحلاقة) .

وقام الشايب (عطية) إلى صندوقه المعدني ، وكان يحفظ بداخله أشياء مهمة ، أو هي غاليه في نفسه ، بينها (دفتر حفيظة النفوس) الذي كتب موظف الضاحية على ورقه الصغير ، اسم حامله وعمره ومكان نشأته وولادته ، ولم يكن الحصول على مثل هذا الدفتر بالأمر اليسير ، فقد أحتاج إلى شهود ، وبصمات، وصور صورها عند مصور في الضاحية كذلك ، وخاتم الأمر أنها كما يقول الأب (تابعية) لا تصدر حتى تحمض الكبد بعنائها .

وأخرج الشايب من جيبه منديلا عتيقا ، وتلمس طرفا معجونا من أطرافه ، فعثر على مفتاح صغير نحاسي ، وفتح قفل الصندوق، وحضر عدة الحلاقة ، ثم دعى جاره تحت شمس العصرية في الساحة، وقرب إبريق الوضوء ، وكان الحفيد واقفا يصب الماء على رأس الجار الذي انهمك بفرك جلدة رأسه بقطعة الصابون، ليغمض عينيه المشتعلتين بحرقته ، ويستسلم لشفرة حادة جديدة في يد الشايب (عطية) .

وقال الجار مغتبطا بالشكر للشايب .

- : سلمت يدك يا (بو حامد) .

وقال الشايب (عطية) :

- : تسلم يا جار .. والحمد لله أن الجرح لم يأت على يدي .

واستدعى بالصوت العالي (صالحة) ، طالباً قطعة من الدهن الذي تجمعه الجدة من حليب بقرها ، فجاءت به وكان الجار يذيبه بالفرك على الرأس الأمس ، ويدعو للشايب بالصحة ومزيد العافية .

(١١)

قالوا جميعاً خلف الإمام في صلاة الجمعة : (آمين) .

وبعد أن أدوا صلاتهم ، تفازع الجمع ملبين دعوة الداعي الـــذي دعاهم لمساعدته في (طينة) سقف الدار ، بالتراب والمــاء علــى الخشب المصفف المنقوش .

وكانت اليد الواحدة في الجماعة تهوّن كل عظيـــم ، وتحــوّل الصعب الكبير سهلاً صغيراً .

(ألا ويل عينيك يا شايب الوقار والغيرة لو عشت إلى يـــوم ترى فيه أصابع اليد اللازمة ليست في كف واحدة) .

جمعت الجماعة صلاة الجمعة ، وقالوا جميعا خلف الإمام (آمين) ، (يحمي الله حوزة الدين ، ويدمر اليهود وأعوانهم من المستعمرين ، ويذل الشرك والمشركين) .

وقام في ساحة المسجد فلان الذي يعرف الكل ، أن البناء بالحجر ومساعدوه يعملون في بناء بيت له منذ ثلاثة أشهر و .. قال:

- : يا جماعة الخير ، علمي لكم خير (أردتكم في صبيحة النهار ، تحضرون .. لطين سقف البيت .

وقالوا جميعا ، أو قال أكابرهم في العمر والمكانة كما تجري العادة :

- : أبشر بنا .

وكان فلان هذا ، قد جمع خشب السقف والجريد من الوادي، واشترى بعضا منه من السوق ، واستعان بحمير الجماعة، فحملوا على ظهورها التراب ، ونقلوا في يوم على ظهور سبع من الحمير ، فتكدس كومة كبيرة قرب البناء ، وكان النجار الذي حاك بمنقاشه أبواب ونوافذ البيت ، قد بذل جهدا أخيرا بمساعدة الآخرين في تصفيف خشب السقف .

واليوم مع إنتباهة الشمس من رقدها ، جاءت النساء بقربهن مملوءة بالماء ، ووقفن يصببن ماءها على التراب الذي يبثه الرجال من زنابيل صغيرة ، صنعت من بقايا عجل السيارات في المدن،

بـــ (المساحي) والنشيد المرادف على الألسنة ، كانت طينة سـقف البيت تتمدد مغطية الخشب ، وما توسطت الشمس ضحاها حــــتى فرغوا ، وغسلوا أيديهم وأرجلهم ببقايا الماء في القرب ، وقعـــدوا في مجلس عريض يمدحون البناء والنجارة ، ووسع البيـــت ، ويشـــربون على التمر الذي قدمه صاحب البيت القهوة ثم الشاي .

أما الزغاريد التي تلت رقصة (العرضة) وقد أداها على عجـــل الرجال ، فكانت تصاحب رقص النساء بالدفوف .

وفي ركن المجلس ، كان الشايب (عطية) يدخن بجوار واحـــد من أهل القرية ، ويتذاكران ما كان يجري في مثل هـــذه المناســبات وقت شباهما ، وكيف كانت قلوب القوم على خير مـــا تكــون، وكيف كانت الرقصة بين الرجال والنساء واحدة ، يقف الرجـــل، وتقف إلى جانبه المرأة ، وعلى الـــدف والطبـــل تذهـــب وتجـــيء الأقـــدام، وتسير على الإيقاع الخطى .

وقال الشايب وهو يلزم بطرف لحيته المنسدلة بخمول قصير مـــن ذقنه :

- : نعم يا أبا فلان .. والله ، إني أخاف من يـــوم يجـــئ تتغير فيه الأمور ، فيذهب هذا ، ويعرض هذا ، ولا يبقى لجماعتنـــا من يجمعهم .

وألقى الشايب بعقب سيجارته إلى طرف مجلسهما ، وكان خاليا من الفراش والحصير، وقال:

: أدع الله يا فلان لا يأتي علينا يوم كهذا .

وقال على قدر معرفته : (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

(١٢)

كان على أشد حيلته يدور الحوار بين جيل الأمس ، وأبنـــاء اليوم ، وكان لأبناء اليوم أبناء ، ويحتاج أبنـــاء الأبنـــاء إلى عـــين تنظـــر في آتي الأيام ، فنبت اليوم زوجة وأم الغد ، ومن العلم مـــا ضر ، ومن العلـــم ما نفع في عين أب الأمس .. فليـــدع لنفســـه يـــوم فات ، ويغمض عينيه تاركا يوم الإبن وابنه له .

- : يا أبي طول الله عمرك .. الزمان تغـــير، والدنيـــا لا تبقى على حال ، يا أبي يومكـــم ليس كيومنا ، ويم أولادنا يكون في الدرس والعلم ، يا أبي، انظر أحفادك على صغرهم ، يعلمون مـــا لا تعلم، وبكرة النهار يكبرون . . متعلمون عارفون . . يتوظفـــون في الحكومة ، ويأخذون على كف الراحة الدراهـــم ، لا يشـــقون ولا يتعبون .

- : اسمع يا ابني .. أرى الزمان يســـوء بأبنائنـــا ونحـــن أحيـــاء .. قلت لك ، جاءت المدارس، وصرفت أولادنا عن عمـــل الأرض ، وصار الصغيـــر يهزأ بالكبير .. تقول لي ندخـــل بناتنـــا ، على آخر الزمان المدارس ؟ ! عجب يا زمان .

- : طيب يا أبي ، وما العيب ؟ يتعلم الولد، وتتعلم البنـــت ، والعلم يخرج بني آدم من الظلام

وكان الشايب (عطية) يتحفز في جلســـته ، فيثـــني ركبتيـــه، ويمـــد ساقيه حينا ، ويحرك يديه في انفعال ، ويقذف أنفاسه الحـــارة مع سيجارته التي يعقبها بأخرى .

ولم تكن مدرسة البنات التي افتتحت في الضاحية ، وساق بعـــض الأهالي بناهم إليها ، إلا مبعثا لجدال حار وشديد بينه وبين ابنه .

وكان (حامد) الذي يجد في نفسه نقصا أمام أولاد ، بسبب عدم معرفته للقراءة والكتابة في وقت لم يكن على عهده مدارس، ولا دفاتر وأقلام ومقاعد يقعد عليها طالبوا العلم خلف لوح ، يقف إلى جانبه معلم نظيف ، يعلمهم الحساب ، والدين ، والنظافة .

وعنى (حامد) عناية محسوسة بأولاده ، وكف عنهم كلام الشايب ، الذي يرى الرجولة في الولد إلا في أرضه ورعايتها ، لكنه أمام ما فعل كل الناس بأولادهم في إدخالهم إلى المدارس ، أصبح مع الأيام ، آلفا للأمر .

ولم يكن الشايب كارها للتعلم والعلم ، لكنه يكره أن تهمل الأرض ، وينسى الأحفاد فضلها وخيرها عليهم و على الآباء والأجداد من قبل .

وها إن الكبير يذبل ، والصغير يكبر والرضيع الصارخ في المهد يصبح في عمر يدعوه لدخوله المدرسة .

وقالت (مليحة) للجدة (رفعة)

- : يا عمة ، ألا ترين أننا تأخرنا عن زيارة (صالحة) ؟

وما (صالحة) بقليلة المقام في قلب (مليحة) فتلك العانس التي لازمتها عشرة الأيام وهونت من شكاوي قلبها ، وأرضت الأحفاد ، لا يمكن أن تغيب عن الخاطر لكونها تزوجت وانجبت طفلين ، أحدهما أنثى .

ولم تكن لتنسى صديقتها في بيت الأب ، فاسم طفلتها كان (مليحة) و (مليحة) زوجة الابن ، وأم الأحفاد ، وحمالة الهم، والكادحة في البيت وفي الوادي ، وقالت الجدة ، وقد أوكلت منذ أيام (مليحة) على حليب بقرها ، وعلى دجاجها والبيض، وجاءت دورة الزمان ، فخط الشعر الأبيض في الرأس حتى المفرق، وضمخت الأيدي بستار الحناء الأحمر ، وهاجت رياح الوجع الذي تشكو منه في أول الزمان ، فحضت المفاصل ، وتصلبت في الضلوع ، وأصبحت الخطوة تنوء والحركة الضعيفة لا تقوى على المقام ، ولم يعد في أحايين غالبة لظهر الجدة قوة على الوقوف والركوع في الصلاة وإذ لابد من خاتمة العمر الطيبة والحسنى، فعلى من هو في هذا العمر من واجب الطاعة والفرض ، وها أنها تقضي صلاتها قاعدة :

- (صالحة) : طيب يا (مليحة) أذهبي إلى
وادعيها بطفليها .. قولي لها ، أمك تحب أن ترى طفليك ، وتشبع من رؤيتك.

وقامت (مليحة) إلى الشايب ، وإلى قربه وضعت (دلة) القهوة والفناجين ، وأكدت أنها ساخنة جدا ، وعليه أن يشرب منها، حتى يجيء الأحفاد من المدرسة ، ويحين حضور الزوج من الوادي، وقالت :

- : لن أتأخر .. غمضة العين ، وأكون جئت من عنـــد (صالحة) .

ومد الشـــايب يدا ترتعش بما تحمل ، وأخرج مـــن جيـــبه ريالات قليلة معدودة ودسها في يد (مليحة)

وأوصاها بعيدا عن العين تعطيها (صالحة) وقال :

- : ليتها تجئ .. تسلم عليها وعلى طفليهـــا .

وقالت (مليحة) :

- : هكذا أوصتني عمـــتي ، ســأدعوها . ســتجيء ، ستجيء.

لففت (مليحة) على رأسها وعلى الكتفين ، (شرشفا) أبيــض و أدنت طرفه دون الذقن فتلثمت ، ووجهت خطوتها نحو البـــاب، ولحقتها الطفلة (مريم) وكانت تحتذي حذاء أحمر يزيد قليلا عـــن حدود القدم وكانت به فرحة فقد نام معها البارحة ، (وما أجمـــل حذاء جاء بعد طول مطالبة من الأب ، وبلون أحمـــر) ، وفركـــت عينيها بقفا كفها ، أبدت رغبتها الملحة واستعطافها ، وقالت أمها :

- : هذا أنت ، لا أكاد أخرج من البـــاب، إلا وأنـــت كالغراء في ذيل ثوبي .

فركت (مريم) عينيها وفركتها بظهر كفها فـــامتزج ســائل الأنف بالدمع ، وصاحت راجية ، وأخمج هــذا بصــدر الــــجدة فصاحت :

- : بكرة النهار تسرحين إلى المدرسة .. أتحسبين أن أمك سترافقك ؟ أقعدي .

وأمسكت بأصابع يديها الصغيرتين طرف ثوب أمها ، ومضــت الأم تتمتم بكلام لا يعني الطفلة في شيء طالمـــا أن نهايــة التشــفع أفادهـــا بالذهاب معها دون ضرب .

وقالت عمتها (صالحة) :

- : ما شاء الله ، كبرتي يا (مريم) في الغد تســرحين إلى المدرسة .

واستيقظت الطفلة بالنبأ الذي غزا أذنيها في البيت منـــذ أيــام، ورأت في نفسها مساواة بإخوانها الصبيان الذين يكتبـــون بـــالأقلام الملونة في الدفاتر ، ويحملون الحقائب إلى المدرسة .

و ..

وقد كان لها ما تمنت ، فبعد أيام رافقت بنات القرية على مقاعد سيارة طويلة، تأخذهن في الصباح ، وتعيدهن وقت الظهر .

وصرخت (مريم) بالسائق :

- : قف .. قف ، حذائي .. حذائي .

وحسب السائق الذي يعرف طفلات سيارته فـــرداً فـــرداً ، أن مكروهاً حدث فتوقف .

وكانت فردة الحذاء قد انخلعت من القدم الصغيرة ، وجـــاء في علم (مريم) أنها لن تستطيع لبسها دون أن تقف السيارة .

وضحك السائق بعد علمه بما قصدت إليه ، وراح مـــع الأيـــام يتندر بها مازحاً ، ويسأل (مريم) التي تنمو مع جريـــان الفصـــول فتغمض رمشاً على رمش ، ويحمر الخدان الصغيران .

و ..

سأل الشايب (مريم) :

- : هذه أربع سنوات ، وأنت تســـرحين وتروحـــين .. قولي لي ماذا حفظت من القرآن ؟

- : يا أبي ، نحن لا نقرأ القرآن فقط ، نقـــرأ المطالعـــة، والجغرافيا ، ونتعلم الحساب .

- : حسبتهم يعلمونكن أمور الدين .. أخاف يتغير بنـــا الزمان .

وقال (حامد) مبتسماً :

- : طوّل الله عمرك ، العلم بحر ، أما نحن فقد نلنا الجـــهل في صبانا .

وكانت الجدة التي قد أوكلت أمور بقرها ، ومئونة غرفتها (المليحة) توصيها أن تعطيها قبل ذهابها إلى المدرسة ، ما تجده من مقتنيات المئونة .

- : أعط (مريم) من البسكويت .. أعطها من ذاك الزبيب الذي في كيس القماش .

وتجد (مريم) في هذه الوصية الحرج ، وتتمنى لو يدركون كم هي شغوفة بأن الجدة لم تنظر إلى سنينها التي تتبرعم فيها قامتها، فتغضب وتستر في الصدر كل مرة غضبها .

وقالت الجدة :

- : اسمعي يا (مريم) منذ ماتت أختك، وقبل مجيء مدرسة البنات بسنتين ، ونحن نرعى خاطرك أكثر من أخوتك .. هيا انظري كم نرضيك ونغضبهم ، وكانت (مريم) قد رفضت تحضير شأن صغير للجدة ، بحجة الدروس وسمعت قطيعاً من الكلام الذي لا تقبله الأذن من الجدة وأعقبت الكلام بالسباب .

وكان (حامد) يسمع الجدة ، ويضحك في داخله ، ولا يصعب عليه الرد بإقناع الجدة ، لكنه كان كالواثق من خطأ كلامها ، يلقي بالقول الهين ، ويستصغر الأمور .

وشكا الحفيدان من قسوة أخيهم الكبير ، وفتنا إلى الشايب أنهما رأياه مع ولد فلان من القرية يدخن ، وامتص الابن غضب الشايب، وقال :

- : يا أبي ، كيف تصدق سفاهة الأطفـــال ، هكذا هـــم يكذبون على من يغضبون .

وصرخ الشايب في حزن وحسرة :

- : نعم .. بكرة النهار ، أخاف يتعلمون كل مكـــروه، وينسون الصلاة .

واقترب (حامد) من أبيه ، ولامس بـــالكف كتفـــه ، ونـــثر كلامـــا لينا ، وأكد أن الغضب وشدة القـــول ، لا تليـــق بســـنه وصحته ، فليهدأ ويستعيذ بالله من الشيطان محرك الفتن .

(١٣)

تجدد الأخذ والعطاء في جدل الكلام ، وعلم الأب الشايب حتى استقر في قلبه اليقين أنه حياة كانت تسير على الدابة في المتاع والركب تتعطل ، بل تباع وتذبح اليوم ، وتفنى تلك الحياة الحية في صدره إلى حياة أخرى في رأي الولد .

وبالأمس كان الجار في السن والند ، واليوم مات ما كان، فليذهب كل ما يريد إلى ما يريد أو إلى ما لا يريد .

كانت (مليحة) تكابد في إطفاء جمرة استيقظت بقلبـــها منـــذ حين، إذ لسعها ذكر ابنتها المرحومة ، و لم تتخط الثامنة إلا ببضع أيام معدودة ، (كيف لها نسيان فلذة حشاها ، ولا تـــزال في عينـــها بـــ (قبع) كالطاقية أسود يلم رأســـها الصغـــير ، مـــا أبر كـــها، ســـاكنة هادئة، لا تخاصم ولا تخرج من فمها الكلمة إلا في مكانهـــا، تعرفها في رضاها وزعل خاطرها ، ترضى بالقليل وتحـــب اللـــين، وتسمع كلام الكبير ما أبركها .. ما أبركها وما جف من بعدهـــا الدمع على هوان) .

وكانت (مليحة) تجتر صورة ابنتها وتغمض عينين حـــارقتين، وتبتلع لعابا في الفم مالحا ، ويقطر من أنفها قطر خفيف كـــالدمع، فتمد يدها وتمسح بكم الثوب ما تقاطر ، وتكتم شـــهقة تحـــاذر أن تظهر .

وكانت في قعدها القريبة من مشب النـــار تظـــهر أن دخـــان الحطب قد أذوى عينيها ، فتدير وجهها إلى الركن الموازي جـــانب المشب .

(يا لعجب الأمور ما الذي جاء بالمرحومة في قتلتـــها الـــتي لا تذكر تلك ؟ وكم من السنين رحلت بحلاوتها ومرارتهـــا ؟ وكـــم تعاقبت الأيام ببياضها وسوادها ؟) .

أنفقت خاطرا طويلا ، وهي تحاول ستر منظر قتلة ابنتــها ، رأت ما فعل بها الثور في (مجرة) البئر ، إذ عاد خلفها بقرنيه القـــافزين، وطحن جمجمتها ، وكسر أضلعها ، وهي تصبح وترفع يديها وتزعق بكل ما تختزنه بلاعمها من صوت .

و ماذا أفاد الشايب وأبيه ، حين فزعا مسرعين ، فوجدا الثـــور قد قتل الطفلة ؟ وماذا تكون كالبلحة الحمراء في كف القـــابض أو الفاتك ؟ فزع الثور واستقرى عضله وهز سنامه ، وجرى يتمـــرغ في البلاد ، وصاح الشايب (عطية) اقبضوا عليه .. قربوا رقبته مـــن (جنبيتي) .

تفازع الناس ، فمنهم من حمل الذبيحة معجونة بدمها ، ومنـــهم من جرى بالجنابي والهراوات الطويلة خلف الثور ، وما زاده اللحـــاق إلا هروبا ، وهدى الله فلان إلى حمل بندقيته ، فعبأها ورمى ، وعبأها ورمى و رمى ثلاثا ، أصابت الأخيرة الرأس بين القرنـــين ، فخـــار وهوى ، ولحق الشايب (عطية) ثوره النطاح على نفس وخـــوار، وحك بحد الجنبية أسفل الرقبة ، واجتمع الطارد والشارد ، فســحبوه المدجن السمين ، قرب شجرة طلح كبيرة ، وكـــثرت الســكاكين تجـــتز الأطراف ، وتخلع عن اللحم جلده الأحمر العريض .

وقال الشايب (عطية) بوجع لا ألم بعده :

- : (دفعا وصدقة) عن طفلتنا .. لا بارك الله في حلال يقتل عيالنا .

سرح الثور إلى الوادي لترع الماء من البئر ، فعاد لحما مقسما في أيدي الجماعة ، وتلته الطفلة ، فعادت في كفنها .

انتبهت (مليحة) لصوت الجدة الذي أيقض خاطرها ، فقد أكلت النار رؤوس الحطب ، وامتدت إلى الأطراف وكادت تسري في فراش الحصير المحاذي لها ، وسألت في عجب :

- : (مليحة)" .. النار يا مخلوقة ما تحسين بالقبس ؟ ! .

و أدارت همهمتين مسموعتين في فمها ، والتفتت إلى الجدة، وتذرعت من سرحانها الجارح ، بأنها كادت أن تنام، فدفء النار يجلب النعاس .

و لم تأبه الجدة بنعاس أو نوم (مليحة) ، ولكنها تخوفت من إهمال قصير ربما فعلت النار فيه ما لا يحمد .

و سألت إن كان وقت المغرب قد حان ، وردت (مليحة) وهي تقرأ على الحائط الساعة الدائرية السوداء المعلقة ، أن الوقت لم يحن بعد لصلاة المغرب . وكان على (مليحة) أن تفز من قعدتها تلك قرب مشب النار وتخلف ما في القدر من طعام على النار، لتتوضأ وتقيم صلاتها .

و نهضت متثاقلة إلى ركن خبئ خلف الدار ، وتغسل يديها إلى المرفقين ، وتتوضأ .

وعلى صحن كبير واحد ، اجتمع أهل الدار جميعا ، فأكلوا عشاءهم ، وكان الأرز لا يناسب الشايب كثيرا ، وحيثما يكون الطعام أرزا أو شيئا غير ما تعود في الأيام الماضية عليه ، فإنه يطلب في المرة القادمة ، طعاما يجد في طعمه طعما أليفا فيصنعون له (العصيدة) من الذرة مرة ومن الحنطة مرة ، ويصنعون له في حين خبزة الحنطة وكلاها لا تلذ إلا مع مرقة اللحم والبصل .

وقد جاءت الأيام بأفانين الطعام ورحل الزمان بما حمل ، ولم يعد للأحفاد ألفة طيبة بالطعام القديم إلا نادرا .

ولكن ، وبعد ذبح الثور ، وفتور الزراعة عند أغلب أهل القرية ، وبعد أن عمل (حامد) موظفا (فراشا) في مدرسة البنات ، أصبح أهل الدار جميعا لا يعملون في الوادي إلا لماما ، ولم يعد أحد يبذل عناية بالحمارة البيضاء ، ماعدا وقت تقتطعه (مليحة) فتشد على ظهرها ويرى فيها الشايب فرسا منذ أيام خلت .

وكان الشايب ، الذي أصبح يهبط إلى السوق مع فلان في سيارته ، وكذا كل من أراد السوق ، لا ينسى حمارته البيضاء، ويوصي بإعلافها وسقايتها .

وقال (حامد) يوما لأبيه :

- : نبيع الحمارة ، لا فائدة منها .. ستكبر وتعجز فـــلا تسوى ثمنا .

وكان يعلم أن مثل هذا القول سيحرك الأب بقساوة الكـــلام، وزاد على قوله أن أهل القرية يبيعون كل حلالهـم مــن المواشــي، ليــس الحمير والثيران فقط وأن المزارع لم تعد تعطي ما يقابل التعـب ، وأن الزمان تغير وأصبحت السيارات تأتي بما يحمل على ظـــهورها من الحاجات ، وأن فلاناً وفلاناً منذ وقت بعيد باعوا حلالهم واشتروا السيارات ، يقودها بعضهم ، أو يقودها أولادهم وأنفق (حــــامد) كلاماً طويلاً في تدبير ما قال وإقناع أبيه ، وقال الشايب :

: اسمع يا ولدي .. لقد خفت منذ زمن وقلت ليت الزمان لا يأتي علـــيّ مبدلاً وأنا حيّ .

: يا أبي ، الزمان يتغير ، ونحن مثل غيرنا من القوم .

: نعم مثلهم ، ولكنه زمان أضاع فيه الجمّال جمله ، وذبح المزارع ثـــوره وبقرته، وباع الحمار والغنم .

: باعوها لأنهم لا يحتاجونها .

: كيف ؟ متى كنا نستغني عن الـــحلال ، و حياتنا لا تســـوى قرشـــاً بدونـــه ؟! .

- : يا أبي ، أهدأ طوّل الله عمرك .. قل ليّ هل تهبط أو تسرح في مشاويرك ، إلا في سيارة فلان أو فلان ؟

- نعم ، كبرت ، وعجزت قدماي عن المشي والحمارة بطيئة في مشيها .

- : طيب .. يعني لا لازمة لها .. نبيعها في السوق ، ويجي بدوي يشتريها .

وفرك الشايب (عطية) يديه ، وبحث عن شيء يفرط فيه انفعاله ، فأدخل يده في جيبه وأخرج علبة السجائر وكانت من نوع غير الذي كان قد تعود عليه في الأيام القديمة ، لكنه مقبول، وأشعل سيجارة ونفث دخانها ، وكان يندفع قوياً إلى أمام وجه الابن، وكان (حامد) يناسل الكلمات ويدير وجهه قليلاً ، كيلا يبدي تذمره من الدخان ، ومن كلام أبيه وقال :

- : تعرف يا أبي .. سأتعلم القيادة، واشتري سيارة .

: اشتر سيارة ، ولا نبيع الحمارة ، بقيت حمارتنا وبقرتنا ، وكفى .. أهملنا الزراعة .

: لا .. البقرة نحتاج حليبها وسمنها ، وهي لا تتعبنا ولن نبيعها .

وإذ هما في هدأة جاءت مع إبريق الشاي الذي أحضره أحد الأحفاد ، دخل ابن الجار وكان في يد (حامد) وسلم في صوت خفيف ، واتبع سلامه :

- : يا عم .. كما علمت وفاة الوالد قبـــل أســبوع .. والليلة ذبحت خروفين ، أبغـــاكم تتفضلون للعشاء .
- : تغمده الله في الجنة .. آخر ما دخـــل داري ، يـــوم حلقت له رأسه .

وأضاف مع أنه فقيده :

- : سنموت .. كلنا للموت ولو بعد حين .

وكان قلبه يبكي ، ولم يرد أن يبين بكاء داخله أمام ابنه وابـــن الجار ، وكان الشايب (عطية) قد بقي منذ أسبوع ، وحين علّمـــه بموت الجار ، يوماً من ضحاه إلى العشية ، لم يدخل فمه غـــير المـــاء والدخان ، انزوى ركناً في جبته الصـــوف ، وذرف مـــاء العـــين، واستذكر أياماً جمعتها ، وطاف باله بالدنيا وآخر مصيرها ، ونهايـــة ابن آدم ، وتلك الحفرة في الأرض ، يهال عليها التراب ، ويصلـــي الناس عليه صلاة الميت ، ثم لا يلبثون أن يذهبوا إلى شـــؤونهم بعـــد اجتماعهم هناك .

و قال في صدره على قدر معرفته : (منـــها خلقنـــاكم وفيـــها نعيدكم) وقال بعد وقفة :

- : إن شاء الله ، سنجيء ، أقعد .. أشرب فنجان شاي.

وجاء ذكر الجار على خاطر (حامد) فشرب فنجانه الســـاخن في دفعات متلاحقة ، ومدّ به فارغـــاً إلى والـــده ليمـــلأه ثانيـــة،

واستذكر في تتبع الأشخاص الذين يعرفهم ، وقد فـــارقوا الحيـــاة، وتركوها بسياراتها ومدارسها ووظائفها للأحياء ، وفي الليل ، وبعـــد أن قضى الجماعة صلاة المغرب في المسجد ، احتذوا نعـــالاتهم ، ولم يعودوا إلى بيوتهم ، إذ كانت ذبيحتان مع الأرز تنتظرهما في دار ابـــن فلان، الذي ذبحهما صدقة إلى روح أبيه .

وقالت الجماعة حيث فرغوا من العشاء بلسان واحد :

- : (كثر الله خيركم ، ورحم الله ميتكـــم) .

ورد ابن الميت ، وكعادة المضيف :

- : (هنأ ، وعافية) .

وخرج الناس فرادى ، وغير فرادى ، يغسلون أيديهم في الساحة بالماء والصابون ، وعاد البعض إلى المجلس لشرب القهوة والشـــاي، والبعض لزم الطريق وسرا .

ودعا ابن الميت بصوت مسموع :

- : يا (حامد) تعال لا تسري .

والتفت ، وكان قد لزم طريقه مع الشايب ، و الـــدار ليســـت ببعيدة عن مضيفهم الجار ، ولم يشأ الشايب أن يشـــعل ســـيجارته ويشرب الشاي ، إلا في داره وقد غطى بصحن آخر أكـــبر منـــه، وكان قد جعل في محتواه أرزاً ولحماً ، وقال في هدوء .

- : هذا يا جار عشاء العيال .

وتناول (حامد) الصحن شاكراً وقرأ ما أمكنه قراءته من المعوذات والآيات ، يبعد عنه أرواح الجن ، الذين يأتون على ريحة اللحم في الليل ، وكان الشايب قد سبق ابنه إلى الدار ، وكان القمر في السماء الصافية صافياً وأبيضَ كصحن أبيض مدهون .

وكانت الكلاب تنبح نباحاً متقطعاً ، وكان عواء كلب بعيد يكاد لا يترك للساري في الليل حديثاً مع نفسه إلا أن يدعو على الكلب بزوال روحه ، فيردد :

(بروحك .. بروحك إن شاء الله) فالعواء من الكلب فأل غير حسن ، ربما إخبار بوفاة قريب أو حبيب .

ودخل (حامد) الدار ، فألفى الزوجة والأولاد ساهرين، وكانت الجدة قد استمستهم خيراً منذ وقت ، وقرأت الفاتحة، و ألحفت بدنها بغطاء ثقيل و .. نامت .

أما الشايب فبقي طويلاً بعد ذهاب الجميع إلى النوم ، يدخن ويسمع المذياع ، وكان يذيع أنباء ما بعد السهرة الإذاعية ، ويؤكد على زيارة قريبة متوقعة للسيد (كيسنجر) المبعوث (الأمريكاني) إلى بلاد الشرق الأوسط ، وحيث أن ماكينة الخياطة ذات العجلة الكبيرة ذات اسم يعني جودها (سنجر) فإضافة حرف أول الاسم، يعني (الكيس) ولا يضيع وقت تذكره .

وفرك الشايب إصبع الصوت في المذياع فسكت ، وأخطأ آخر السيجارة ، وهمهم في خاطره بكلام ، دعا الله فيه أن يحفظ على المسلمين ديارهم من الأعداء ومكايدهم وحروبهم ، وقال (آمين . يحمي حوزة الدين ، ويدمر اليهود وأعوانهم من المستعمرين) مثلما يدعو الجماعة خلف الإمام يوم الجمعة ، وقام فطقطقت ركبتاه ، ثم تدثر بلحاف ثقيل كانت الجدة قد أدفأته بنفسها المسموع .. فاستدفأ ونام .

وكان الحديث الذي اجتمع عليه الجماعة ، الليلة في أول دخولها ، ووقت كان ما قبل أذان المغرب يجمعهم في ساحة المسجد ، متوضئين ينتظرون مؤذنهم يرفع صوته بالآذان ، حديث كما تجري العادة ، بتنوع في كثير من الأمور ، يبتر بعضها لينتقلوا إلى أخرى ، فيذكر واحد من القاعدين أن سعر التمر هذا الأسبوع في السوق كان أغلى من سابق الأسابيع ، بزيادة ريال ، ويضيف آخر أن التمور جميعها تغيرت في الحجم والطعم واللون ، وأنها مع هذه التغيرات غالية ، ويضاف إلى ما قبل أقوال مرادفة أخرى وهكذا .

وتحدث فلان في أنباء ما يذيعه المذياع ، وكان يلتقط بعض الأسماء ، أو بعض الحوادث المكررة ، فيحدث بها المجتمعين دون أن

تكون في الغالب دقيقة و لا صحيحة ، ولكنــه موضــوع يجــد في التحدث به ، متعة ومغالاة لا يستطيع أحد بسهولة التحدث بها .

وذكر أن شخصية من بلاد الأمريكان ، وذكر اسمه (ســينجر)، ويعلم أن اسمه ناقصاً ، وقال في نفسه إنهم لن يحاسبوه ، أو يؤاخــذوه لعدم معرفتهم ، قال انه سيزور الشرق الأوســط ، وكــان ينطــق (الأوسط) دون تأكد الهمزة ، وكل ما يدريه أن الأجانب الذيــن يعادون الإسلام والمسلمين ، ويدعو الله عليهم الجماعة كل جمعــة، يكيدون لكل مسلم المكايد ، ويدبرون الخطط .

ولكن الشايب (عطية) عند آخر الأنباء قبل نومــه ، التقــط الــخبر ، وحفظ الاسم كاملاً ، ولكي ينطقه كاملاً في غير نقــص، فهذا من الصعب .. وقسم الاسم إلى قسمين (كيس) و (نجــر) وما (سينجر) بغريبة على اللسان .

وأحس الشايب (عطية) بانتصار لاصطيــاده هــذه المعرفــة الكــاملة ، فحدث بالاسم كاملاً دون مناسبة ، وينوي تعاليه علــى فلان المستمع لأنباء المذياع والمحدث بها قبيل المغرب .

وقال فلان الذي وجد له منافساً

: نعم ، يا جماعة الخير ، سمعت في إذاعة (لندن).. هل كم عند العــرب سلاح ؟ وهل كم عندهم عسكر ؟

فيخرج (هل كم) وكأنما اصطيادها بعد طول مطاردة ، ومع أن هذا الجمع القليل قد جمع بعض المتعلمين ، إلا انهم قليلاً ما يجازفون بالإدلاء بمعارفهم فوق رؤوس من يكبرهم ، وفي لقاءاتهم الخاصة ، يتندرون ببعض ما قيل .

وكان أحد الجماعة يلاعب خيوطاً ملونة تدلت من كم جبته، ورأى أن الحديث لا يلّم الجميع ، فاتكأ على ذراعه الشمال ، ومد قدميه قليلاً تحت غطاء الجبة ، وانهمك في توليف قطع الحجارة الصغيرة، التي ينالها امتداد يده ، ويبني بناءً يتسلى به لا يزيد ارتفاعه عن الإصبعين أو الثلاثة .

وتحرك الشايب (عطية) الذي لصّقة في الجلسة ، فانهدمت الحجارة ، وتثاءب الرجل ذو الجبّة الصوف ، وسد بقفا يده فمه، واستعاذ بالله من الشيطان ، وطال به وقت الانتظار إلى أن يؤذن المؤذن ، وكان المؤذن واقفاً يلتقط بأذنه تعليقات الحديث، وبالأخرى حدس لبداية صوت مؤذن القرية المجاورة ، ولمح عن بعد كلبة معقوفة الذيل ، تنسحب قرب الساحة ، وخاف أن تغير على الدجاج ، ما لبثت أن تركت مكانها واختفت عن العين ، ودخل صوت مؤذن القرية الجارة ، فأذن وتبعه القاعدون ، وذابوا في صمت

لا يخلو من الهمهمة ، وأنهى المؤذن آذانه ، ورأى الكلبـــة تمـــوج في الساحة وتتسمّع أصوات الدجاج ، فصاح :

- : (إنقلعي) يا خبيثة .

وجمع الجماعة عيونهم في المؤذن ، فنكس برأسه وهمهم بدعـــاء مـــا بعد الآذان ، ثم تقاطروا إلى باب المسجد .

(١٤)

ساقت معها الأيام صنفاً جديداً من الحياة ، وقال الـــذي يقـــود حافلة المدرسة .. يذهب ويجئ بهن في الصبح والعشية : (خــير لي بعد منتصف العمر .. اقترب من الولد والأهل ، ولو علـــى قلـــة الأجرة ، ففي المدن شح الرزق ، وأصحاب العمل .. يشـــترطون اللغة الأجنبية ، ويمنحون بعد العشـــاء قلـــى الأجـــر) . فلـــزم المقـــود، واندفع في تعرجات الطريق .

بدت القرية الهادئة في بيوتها الحجرية المرصوصة كعلب الكبريت، وبدت في عين المطل إليها من الجبل المقابل تحت شمس تختفي إضاءتها خلف الغيوم . . متقاربة بنوافذ وأبواب قليلة وضيقة، وبين هذا الالتئام ظهرت بيوت ملجّمة بالأسمنت .. وبعضها مشيّد الأبيض .

وفي الطرف اليماني ، كانت دار من طابق واحد، تحوطها أشجار لوز قليلة وكبيرة ، تكاد جذوعها تسوّد لأناقتها ، وتثمر حنوناً أبيضاً زاهياً ، فلوزاً أخضراً حامضاً كل عام .

وفي الساحة سيارة حمراء بصندوق عريض محشو بالحطب، وكان على ما يبدو أن الشايب اشترى حملة الحطب تلك من صاحب السيارة اليوم في سوق الخميس ويظهر أن أحداً لم يمد يده لإنزال ما في صندوق السيارة إلى الداخل .

كان النهار عابساً ، ورياح مندفعة بلا انقطاع تهز الأشجار، وتسوق في أحضانها الضباب الذي تهدّل فراح كالبخار الأبيض يلف ما تراه العين .

وسألت (مريم) الصبية التي تذهب كل صباح في السيارة مع البنات إلى المدرسة جدتها ، وعيناها مفتوحتان بسؤال كله تعجب :

- : كل هذا كان يحصل، كله على أيامكم ؟ !

: (يا غلتي) لم نكن نعرف السيارات ، كنا نأخذ حميرنا قبل غياب النجمة ، فيطلع علينا النهار ونحن في الطريق .. نجمع الحطب من البادية في آخر الديار ، نختار كل حطبة يابسة، نأكل خبزتنا من غير قهوة، ونعود عند آذان الظهر .

- : هل كان معكم رجال ؟

: رجال ؟ ولم الرجال ! كنا نسرح أربع أو ست نساء بفؤوسنا .

- : ألا تأكلكم الذئاب يا جدة ؟

- : لا ، (يا غلتي) لم نكن نخافها .

وسألت بعد أن سكنت عيناها في محجريهما ، فبدتا مستقرتين :

- : والماء ، أما كنتم تعطشون ؟ .

كان معنا قربة ، ملأناها بالماء ، وفي الفلاة مياه قليلة تجري .. نسقي حميرنا ، ونتزود منه .

وطاب الحديث قرب مشب النار، وكان الشايب يتكئ قربها، ويدير ببطء إصبع الموجات في المذياع ، فيجعجع الصوت ويبخبخ ويئن ويدن ، ويقذف بأصوات قصيرة متقطعة ، وكاد أن ييئس من التقاط محطة واضحة في هذا الطقس الغائم .. وقامت (مليحة) بإشارة من زوجها إلى غرفة الجدة ، ففتحتها وجاءت وبقيت (مريم) والحفيد الكبير يأكلان من الصحن مع أمهما وأبيهما والشايب والجدة ، وكانت الجدة تفرغ فنجان القهوة الكبير الذي

لا ترضى بديلا عنه في جوفها ، وتملأه بالقهوة (مليحة) فتضع فيه الجدة ثمرة لتدفأ وتمضغها على مهل ، وكذا راح يفعل الشايب، و قال :

- : قهوة طيبة ، لولا أن الجتربيل قليل ،ودعمت الجدة قول الشايب :

- : نعم ، ينقصها الجتربيل .

و لم يكن هذا البخار الحاذق ، بسخونته اللاذعة مع القهوة، يخفي على (مليحة) فهي تعلم أن متقدمي السن لا يشربون القهوة دونه ، وكان (حامد) لا يحب الجتربيل كثيرا ، ولكن وزوجته والأحفاد لا يرفضونه مراعاة للشايب والجدة . وفي العشاء تناولوا جميعا مع الخبزة اللبن الحامض ، وتركوا على الصحن فتاتا و بقعا بيضاء ، ستتحلق بها ذبابات الصباح العنيدة ، وستقعد منذ صياح الديك مع الفجر الأول (مليحة) تصنع القهوة وتحضرها مع التمر والخبزة للأحفاد قبل ذهابهم إلى المدرسة ، وقبل هذا الواجب ، فإن الجدة ستصحوا مبكرا وكذلك الشايب ، لا لشيء يعملانه ، ولكنه نوم العجائز ، وسيشربون مع الأحفاد والابن قهوة الصباح بالجتربيل مع التمر .

وقال الشايب في قعدة الصباح موصيا الأحفاد :

: اليوم وقت الظهر يجئ راعي السيارة ، ارجعوا من المدرسة إلى البيت مسرعين ، لتساعدونا في حمل الحطب إلى الداخل .

و أومأ الحفيد الكبير برأسه إيماءة الموافقة ، وقد علم أن الشايب يعنيه هو دون غيره من الأحفاد ، وقال :

: يا أبي ، متى نشتري سيارة ، الأولاد يوصلوهم آباءهم إلى المدرسة بالسيارة ، ونحن مرة نركب معهم ، ومرات على أقدامنا .

- : قلت ، هذا من شأن أبيكم وليس من شأنكم .

وأضاف بعد توقف قصير :

- : هيا .. (أفلحوا) .

وكانت (مريم) قد شربت قهوتها وأكلت تمرتين صغيرتين، وإلى موقف السيارة التي تحمل البنات إلى المدرسة توجهت، ووقفت تنتظر وكاد البرد يجمد طرفي يديها ، فلاقتهما على صدرها كأنها تصلي، وخبأتهما وارتعشت مرات وفركت يديها فأحدثتا خشخشة لينة ، وتطلعت إلى الطريق فلم تر في الضباب أثرا لغبار قادم ، وقبضت بطرفي عباءتها السوداء التي كستها فرطا من الرأس حتى القدم ، فشدت كميها ، فالعباءة جديدة غريبة على البدن الصغير وانزلقت فعدلت من هيئتها واستندت على جدار البيت المحاذي للطريق ، وجاء هدهد إلى عشه في الجدار، فبسط جناحيه الأرقشين ، وأهمل اندفاعته ليحط بقشة كبيرة في منقاره ثم

عدل وحط على السطح ، وكانت تلك تباشير مقدم فصل جديـــد يخف فيه البرد، وامتلأت أذناها بهدير قادم يعلو قليـــلا ، وتوقفــت السيـــارة ، وأطل سائقها المتندر بحذاء (مـــريم) منـــذ أول أيـــام دخولها المدرسة ، وسأل عن أبيها الفراش الدؤوب، فقال :

- : أبي ، لن يحضر اليوم .
- : كيف ؟ معطل ؟
- : لا ، سيساعد أهلي في حمل الحطب
- : الله يساعد الجميع .

وقعدت (مريم) في مقعدها قرب النـــافذة المغلقـــة ، وقـــال صاحب السيارة وقد عمل بها مؤجرة لإدارة المدرسة وترك العمل في المدينة وجاء إلى القرية بين أولاده وزوجته :

- : فرج الله قريب ، لو جاء المطـــر .. لخـــف الـــبرد، ودخـــل فصل دافئ .

وكان يحسب للمطر ألف حساب ، ففي العام الفـــائت نـــزل مطـــر قوي لفترة أيام لم ينقطع فيها ، واجترف معه طريق السيارات الممتـــد في تعرج وهبوط ارتفاع إلى الضاحية والسوق .

وما عاد للمطر في القلب فرحة كتلك التي كانت ترجف أيـــام الزرع ، ودفع بمبدل السرعة فسمع له جغيظا ، ومسرح مع الهـــزات والخضخضة وفي خاطره سؤال مر عن هذا الزمـــان الـــذي جـــرى

بـــالخلق خلف الوظائف وإهمال الزراعة ، ورغب لو أن (حـــامد) إلى جانبه ليتحدثان في هذا الشأن الذي لا ثمرة من خلف الكلام عنـه إلا تعويض الحسرة ، ومضى في غير التفـــات إلى حديـــث البنـــات وضحكاتهن التي لا تعنيه في شيء ، وقال في نفسه (لولا أن كلمـــة الرجل وعد عليه لتركت نقل البنات الست هؤلاء وعدلـــت عـــن الوظيفة) ثم ما لبث أن حدث خاطره بأن القوم يسعون للوظـــائف ويخلّفون أراضيهم قفرة .. وراء الرزق السهل ولو كان بسيطاً .

وتذكر أنه شبع في الأسفار ، والبعد إلى المدينة عن أهله و أولاده وكيف عاش على التقتير والغربة والتعب مساعداً لسائق سيارة مـــن قرية أخرى في المدينة سنوات ثلاث ثم تعلم القيادة ، وجمـــع مـــع السنين قرشاً على قرش فاشترى بالتقسيط هذه المبروكـــة .. يعمـــل عليها والرزق على الله ، وكما يقولون : (كل شدق ولـــه رزق) وماذا في المدينة ؟ لقد تغيرت مع ما تغير ، ولم يعد لابن القرية فيـــها نصيب ، وجاء الأجانب المتعلمون وأصبح صاحب العمل يشـــترط التحدث بالإنجليزية ، فيمن يتقدم للعمل ويعطي أجراً قليـــلاً .. (ألا فليبق في قريته وبين الأهل والأولاد و رزق تـــراه خـــير مـــن رزق توعـــد به) .

(١٥)

ماتت حمارة الشايب ، ومرت السكين على رقبة بقرة الجـــدة على رضى منها .

وجادل الابن (حامد) أباه الشايب ، فــأبى أن يــبرح مــن الــدار العتيقة ، وحلف بالغلظان أن داراً آوته لن يخلفها إلى بنــاء الأسمنــت والحديد ، وليصنع الله بعباده مع الزمان ما شاء .

جرت الأيام جري السحاب واشترى (حامد) سيارة ، وكفى الله الشايب الشجار إذ ماتت الحمارة وبقيت بردعتها معلقة على الجدار بحجرة الحلال ، ومرضت الجدة مرضاً شديداً، حتى أنها رأت الموت بعينيها كما تقول في شكواها الدائمة ، وقامت إلى ملابسها المحصورة في صندوقها وتصدقتها ، وتعبت حتى وجدت من يأخذها ، فشتمت الزمان ، وأنكرت على الناس تغير أنفسهم، ونذرت نذراً لا رجعة فيه ، تتصدق بقرتها ، فدعت الابن وقالت بفم يرتجف خوفاً من الموت :

: اسمع يا (حامد) أمك اليوم رجل على الدنيا ورجل في القبر وقبل الموت والفوت وانقطاع الصوت ، أبغيك تستدعي زوج أختك صالحة ومن ترغب من الجماعة .. تذبحون البقرة ، وتوزعون لحمها "صدقة" على أهل القرية .

ولم يكن الشايب مخالفاً للقرار ولا الابن فقد نفد العلف، وشحت الزراعة شحاً قوياً وقلّ نزول المطر ولم يبق إلا أن يشتروا لها حبوباً أو طحيناً ليطبخ ويقدم لها بدلاً من العلف والبرسيم .

وجاءت الجدة فوقفت إلى جانب الباب في الساحة ، فمسحت بكفها على ظهر بقرتها ، وقالت بعد كلام كله دعاء :

- : (دفعاً وصدقة عنك يا (رفعة)) .

أما الدجاج فقد لعبت السكين مع الأيام في رقابه ، فغاب البيض وغاب النقيق والأذان .

وكان الشايب (عطية) قد حل عن وسطه الجنبية ، ولم يعد ينام في كيس النوم الذي يختفي فيه عن البراعيت ، واصبح للبراغيث سم قاتل في صفائح مضغوطة الهواء ، بل إن البراغيث والبق و القمل، وكذلك الفئران لم تعد ترى وتقول الجدة إنها اختفت مع اختفاء خير السماء والأرض .

وبدا الوادي للناظر مقفراً من الخضرة ، وبقيت أشجار الطلح والعرعر ، وأصبح اللوز والعنب والاجاص فقير الثمر ، ثم اختفى كل طيب على الأرض ، من أشجار الصيف والشتاء .

وقال الشايب (عطية) :

: جاء زماني الذي أخاف منه ، وقل الصديق وانقطع الرجاء .

وقالت (مليحة) :

: صحيح إن الخير قل من الأرض ، لكننا استرحنا في البيت .

وتغير مشبّ النار ، وأصبح للطبخ مطهاة حديثة سهلة وسريعة وبلا دخان .

ورأى (حامد) رأياً ، فأفضى به لأبيه :

: الناس يبنون بيوتهم من الأسمنت والحديد ، ويخرجون من دورهم القديمة إلى بيوت نظيفة واسعة ، و ملساء ملونة .. نحتاج إلى دار كبيرة ونظيفة .

وعج خصام ملأ الدار ، واشتد الحوار بين الابن والأب وكتم الأب أنّة في صدره ، ولازم بلع كلمة غصّ بها حلقه ، فلو كان ما قد كان لحلف عليه بالطلاق ألا يبيت بالدار ، وماج في جبته على مضض شديد ، وقال :

: اسمع يا (حامد) وأن أبوك هذه الدار ولدت بها وتربيت وولدت أنت وخلّفت لي أحفاداً ..كيف تبغيني أخرج منها ؟ يا ولدي الدار هي بحياتي ، ولا أخرج منها إلا إلى القبر .

: يا أبي ، طوّل الله في عمرك ، لا تضيّق صدرك ، أنا بغيت أخذ رأيك ورضاك ، ولا بد لنا من بيت بالأسمنت مثل بقية أهل القرية .. شوف بيت فلان وبيت فلان .

- : (ايش هذا) ؟ ما نحن في الخلاء .

- : ولكن بيتنا قديم وضيّق ولا يسعنا .

- : كنا أكثر من اليوم ، كنا في هذا البيت.

: الدنيا تغيرت ، والأولاد كبروا ، وماذا يقول عنا الناس؟ يقولون إنا عاجزون .

وخبت وهجة الانفعال ، ومد الشايب يده إلى جيبه ، وانـــتزع سيجارة فأشعلها ، ونفث دواخنها ، و كان يخرجها من بين أســنانه الأمامية القليلة ، وكأنما كان يمضغها، أو يعض على أنفاسها بقـــوة، وقال :

: اسمع ، (وأنا أبوك) أنا لن يبقى من عمري مثلما ذهب ..روح أفعـــل ما بدا لك ، أما بيتي فلن أخرج منه إلا ميتاً .

وبان للابن أن الأمر ستذلل صعوبته ، وأن الشايب سيلين ولـــو بعد وقت ، فعزم على البناء ، ونـــزل في أرض غـــير ذات زرع ، لا تبعد عن الدار، وجاء بفلان (المقاول) واتفقا على سعر ما يكلفـــه البناء الأسمنتي يدفعه له من معاشه دفعة إثر أخرى .

ويوم من بعد يوم ، يكبر البناء في عين (حـــامد) وتم البيـــت الجديد واقفاً كالهضبة المجوفة بعد شهور ثلاثة .

وكان (حامد) يخبر الشايب بمراحل البناء في كل مرة ، فيغمغم بكلمات قليلة ، ولا يتمم القول ، حتى إن (حامد) دعـــا أبـــاه في ابتهاج باكتمال البناء (يا أبو فلان)، ومازحه بملافظ طيبة ، فمـــا وجد في وجهه القبول .

وجاءه داعياً ليرى ما صنعه بعد اكتماله وصبغه ، فاعتذر بأنـــه لم يعد بقادر على الحركة ، وبقي في داره المبنية من الحجر والطين .

وكان للأمل في قلب (حامد) مربعاً خصباً بأن أباه سيرضى ذات وقت ويجئ إلى بيت الإسمنت الملون النظيف ، ولكن الأب أعلن اليوم في انفعال أن رجله لن تطأ عتبة البيت الجديد ، وقال :

: أخذتني الحسرة والكبر ، على الأرض والزراعة ، وأخذتني على الحمارة ، وها هي اليوم تأخذني على البيت .

وأضاف في نفخة حارة :

- : وتأخذني الحسرة على عيالي وأهل داري .

أما الجدة ، فلزمت السكوت ، وكانت تقول :

: بقي من عمري القليل ، أقضيها في داري ، أو غير داري .. وصيتي التي أوصيكم بها ، تدفنوني في مقبرة القرية .. عند مقابر أهلي وأحفادي .

وبقيت أياماً ثم جاءها على عجل (حامد) وحمل أغطيتها وهو يغلظ لها الإيمان ، بأن البيت الجديد سيعجبها وان به غرفة صغيرة نقضي بها حاجاتها وتتوضأ ولها به حجرة اشترى لها سرير عريض ومدفأ، وقريباً سيجيء نور الكهرباء الذي يكشف كل ظلام ويبدد الوحشة .

- : أبوكم .. تتركونه في الدار وحيداً ؟

- : لا سيجيء معنا .

وجاء صوت الشايب من ركن الدار نافياً رافضاً ، فعزمت على مرافقته، وقالت :

- : نحيا ونموت سواء .

وأعاد (حامد) أغطية الجدة ، ورأى أن الرأي الصائب هو الانتقـال بكامل الأولاد والزوجة والسيارة إلى البيت الجديـد ، وسيطل في كـل ليلة على الشايب والجدة ، وسيوصل إليهما طعامهما في حينه، مضى .

وبقي الشايب يحرق السجائر ، ويذرع الـدار ، ويتحسس حيطانها الطينية ، وينادي

: يا فلان ، يا فلان ، يا (حامد) يا (مريم) يا (مليحـة) .

ولا يجيبه أحد من هؤلاء ، إلا الجدة التي كانت تـرد بصـوت مجروح .

: يا مخلوق .. أذكر الله ، لو انك خليتنا ننتقل مع عيالنا .

وتضيف في عصبية حادة

- : (الله بنا وبك) .

وكانت توجس الوحدة والخيفة ، وتدوّر عن أذن تصب فيـها غلب قلبها فلا تجد ، وتمنت لو ترى ابنتها (صالحة) التي انتقلـت مـع زوجها ، في بيت الأسمنت قرب طريق السيارة فترفع بعد غيض مكتوم يديها إلى السماء ، وتدعو بدعاء شديد على من غيّر الأشـياء بغيرها ، وعلى الزمان الذي جاء بالريالات تبـدّل نفـوس النـاس،

وأهملهم من مزارعهم وفرق بين الأب وأبنائه ، ثم تغـــص بالدعـــاء وتمسح ذوب عينيها المتقاطر بلا انقطاع .

وكانت تجد في الدعاء عوضاً ، وتقول بصوت أدرد : ديـــاس .. دياس ، كل الأشياء مثل دياس الحنطة ، وتصمت بالعة الكـــلام ، ثم تعيد على مضض : (لا ، والله أن دياس الحنطة فيه خير ، لكن دياس الزمان شر) وعافت الطعام ، مثلما عافه الشايب الذي كان يدخـــن جداً ولا يشرب غير الماء ، أو الشاي أحياناً .

وكان الحفيد بالسيارة يجيء بالطعـــام في وجباتـــه ، أو يجـــيء (حامد) فيضعه قربهما ، ويسألهما الرضى، فتغمض الجـــدة عينيـــها الغائرتين ، وينكس الشايب رأسه في محاولة لإخضاع اللسان الـــذي سينفرط بدعاء لا يرضيه .

وبقيا أياماً تفيض استيحاشاً وتحسراً ، وهزلا هزالًا صارخاً ، وكانت الجدة في خوف مقبوض على زوجها :

- : (يا مخلوق) .. يجب أن تأكل وإلا ستموت .

وتجيء الطعام فتمد يدها فيه ، وتمتدحه غصباً لكي يأكل وقـــام مرة يتفسح في الساحة ، فطقطقت ركبتاه كمـــا يطقطـــق قصـــب الـــذرة ، وهو عليهما ، ووجد أن لا بد لـــه من إطعـــام نفســـه، فاستطعم زوجته ، ورأت في ذلك أملاً طيباً وخرجت متخطية هـــم صدرها .

(١٦)

امتدت عبر الأسلاك إضاءة ، تجعل الليل نهاراً ، وشحبت مصابيح الجاز ، ثم ماتت ، وضاق في صدر الشايب (عطية) أمر الأيـــام التي لا تجمع القوم في الصلاة ، وغليت السلع ، وبخلـــت الأرض والسماء واعتلت النفوس بهرجها الواطئ بالريالات .

(فماذا بعد يا (حامد بن عطية) وأنت تبتاع الحلي القـــديم لتبيعه من ذوي البشرة الحمراء في الأسواق ؟) .

اختفى أذان الديوك ، ولم يرغب الناس في تربية الدجـــاج واقتناء الماشية ، فقالوا إنها تملأ الدور والساحات بالقذارة والصخب .

وكان المؤذن في المسجد يدعو إلى الصلاة ، فلا يجد إلا نفراً قليلاً من جماعة كانوا يجتمعون يوم الجمعة ، يدعون بلسان واحد خلـــف الإمام، ويلبون بفم واحد ، وساعد واحد دعوة الداعي إذا ما طلـــب المعونة .

وبلغ القوم بعضهم بعضاً في غير جمع أو صلاة أن الكهرباء مدّت في أسلاك وأعمـــدة إلى القريـــة المجـــاورة ، وعليـــهم أن يدفعـــوا اشـــتراكات لصاحب الشركة ليوصل التيار إليهم ، وكان كل مـــن يريـــد الكهرباء ، يدفع لصاحبها الريالات ، فيعطيه سنداً في ورقـــة مطبوعة ، ويعطيه وعداً وأملاً .

وجاء بعد أشهر العمّال (الكوارية) فزرعوا أعمدة من المعـــدن عالية ومدّدوا من على رؤوسها حبالاً من النحاس مغلفة .

وتسابق الناس إلى الضاحية التي كـــثرت بهـــا دكـــاكين تبيـــع حاجيات الكهرباء ، إلى جانب أدوات البناء .

وأصبح لعدد من أهل القرية في الضاحية دكاكين يبيعون بها تلك الحاجيات ، ويتاجرون في الفاكهة المســـتوردة واللحـــوم المثلجـــة، وكـــثر المستهلكين من الأجانب الذين يتفاهمون معهم بالإشـــارة، وكانوا يشترون كل الأشياء فيزداد الغلاء .

وباع الناس أدوات الزراعـــة القديمة ، وأدوات الرقص والملابس والحلي لأناس لا يعرفون لغتهم، ذوي بشرة حمراء وشعر أصفر وراح أهل القرية يهزؤون منهم في مجالسهم ، إذ كيـــف لهـــؤلاء المجـــانين الذيـــن يدفعون القيمة الغالية في أشياء لا تنفع !

واندفع (حامد) مع من دفع يجمع أدوات المـــاضي ويبيعـــها، وكان يأخذها في غير علم الشايب والجدة ، وعرض علـــى زوجتـــه مبلغاً مغرياً ، وأخذ نثار حليها الفضي والخـــرز القـــديم ، فكـــانت تستغرب منه هذا الفعل ، وقالت إنها لا تحتاج إليه ولا قيمة لـــه أمام حلي الذهب .

وامتدت الأيدي إلى الأحذية اليدويـــة القديمـــة ، وصحـــون الخشب ، وأشياء عتيقة لم يعد أحد من أهل القرية يستخدمها .

وكان الشايب والجدة يودان لو يطعمان من خـــبزة الحنطـــة أو عصيدة الذرة فلا يجدان إلا ذكرها على اللسان ، فقد ملا من خـــبز الأفران الأبيض الذي يشترى من السوق ، وكذلك الدجاج والبيـــض واللحم المثلج في صناديق بيضاء كبيرة تعمل بالكهرباء .

وقال الشايب مرة لـــ (حامد)

: يا ولدي ، سألتك بالله .. الدجاج الذي تطبخونه لنا، هل هـــو مـــن المكفن ؛ وكان يعني الدجاج المثلج المغلف بغلافات ملونة .

: لا ، طول الله في عمرك .. هذا دجـــاج ، مذبــوح علــى الطريقــة الإسلامية.

- : يعني ، ما هو من عند النصارى ؟

- : والله .. إنه مذبوح على الطريقة الإسلامية .

ولم يكن :حامد" كاذباً في حلفانه ،إذ كانت كل دجاجــة مغلفة من فرنسا ومختمة بختـــم " ذبــح علــى الطريقــة الإسلامية" ، مما يجعله مطمئناً أنهم يأكلون لحماً حلالاً .

(١٧)

تبدل الكلام بين الناس بالإشارة من أبـــواق الســيارات ، ودوّر الشايب "عطية" عن مؤنس من أهل الجيل الوقور فما لقي أحـــداً، وسهرت العيون إلى ما بعد منتصف الليل عند " تلــف العيــون"، (فما أصعبك من حياة ، بقي من نهاراتها القليل في هذا الركن مـــن الحجر والطين) .

وجد الشايب (عطية) أن ما بقي في العمر غـــير قليــل، كما يقول إلى جانب قول الجدة ، وبـــلا مناسبـــة في أحـــايين عديــدة ، وخبت مخاوف الوحدة ، واستأنســا قليــلاً في بيتــهما الطيني ووجد (حامد) ذلك ظاهراً عليهما ، فكان يأخذ (مليحــة) و الأحفاد في السيارة عند العشيات ومعهم العشاء إلى دارهــم الأولى فيجتمعون تحت ضوء مصباح الكهرباء يأكلون ويتحدثون ويمضــون إلى بيتهم الجديد تاركين الشايب والجدة في بعض رضى منهما .

غير أن هذه الألفة المتفرقة لم تعن أن الشايب والجدة يفكــران في الانتقال إلى البيت المبني من الأسمنت والحديد وإن كانت الجدة قابلــة للين ، إلا أن الشايب الذي أبى إباءً قوياً ، يسدّ عليها باب الموافقة .

و لم تشأ كسر طاعته ورمي ماضي حياتها في تخطي رغبته .

وكانت (مليحة) بصحبة ابنتها (مريم) تذهبان إليهما يـــوم الجمعة وهو يوم العطلة الأسبوعية من المدرسة ومنذ الصباح تبقيـــان إلى انطفاء النهار ، فتغسلان الملابس وترتبان حاجيات الدار القليلـــة وتنشران فراش الجدة تحت الشمس .

وكذا كانت تفعل بين حين وحين (صالحة) المتزوجة والتي لا تنقطع في زيارتها لهما ، ولا يمنعها إلا مشاغل الأولاد والزوج والبعد عنهما .

(أما وإن الزمان قد تبدّل بأسوأ منه) فإن الشايب يتمنى مجيء أحد الجيران أو من الجماعة ليتحدث معه ، أو يتذاكر الماضي الجميل، ولكن جاءت السيارات وبنيت بيوت الأسمنت ، وأقفل كل على نفسه لا يزور ولا يزار وبقي الناس مبتعدون إلا إذا جمعتهم مناسبة يخرجون فيها كعيدي رمضان والحج .

وكانوا في مشاويرهم حين يجمعهم الطريق يستبدلون السلام والسؤال عن الأحوال بـ (طوط) من أبواق السيارات ، ولم يعد لأحد وقت ينفقه حتى في السلام والكلام ، فالكل تشغله أمور الحياة الجديدة .

ودارت الأمور في الشهور والسنين ، وإذا بالحديث والسلام يأتي بالمهاتفة في الحبال المعدنية الممدة ، إذ جاءت مصلحة الهواتف، فركبت علباً ملونة توضع مقابضها بين اللسان والأذن فيثرثر الناس فيها كما يشاءون ، وقلّل من اللقاءات والزيارات بينهم .

ولم يعد للمثل القائل (الكلام ما هو بفلوس) مكاناً اليوم فالكلام في الهواتف تدفع فيه الريالات صحيح أنه قرب البعيد لكنه يمتص ما بداخل الجيوب إلى جانب الكهرباء .

وكانت الكهرباء تجعل من الليل كالظهيرة ، فأصبح الناس لا ينامون إلا بعد أنصاف الليالي ، وينفقون ساعات الليل الطويلة كالمقيدين في واجهة الصندوق البلاستيكي ذي الواجهة الزجاجية .

ومع أن الشايب (عطية) كان يعيش نكد الدنيا وصدف تغيراتها أرذل العمر إلا أنه وجد الراحة في حضور (مقرّب البعيد) ونور الكهرباء الذي التهم الظلام منذ حلول المغيب . صحيح أنه يشكو من متذمرات هذا الزمان وأولها كما تتفق معه الجدة (تلف العيون) الذي لا بد للعاقل في مثل سنه من أن يسير على قول المثل القديم والذي يردده في خاطره (إن طاعك الزمان وإلا فطعه) .

وها إنه يسأل زوجته عن الوقت ، فتقتدي بـ (تمثيلية الساعة الثامنة) عند العشاء ولم يمد أحد يده إلى الساعة العتيقة التي تشبه اللطخة السوداء على الجدار ، فقد أصبح مضخم الصوت وقت الأذان يقتحم كل أذن .

(١٨)

صفقت بالكفين على القهر الجدة (رفعة) واستنكرت على الجبال الصم في معرفتها أن تنبت الحنطة .

وقال الشايب (عطية) بحرقة العارف ، لا يرضى عن الحـــق إذا اغتصب من راعيه .

فهاج وماج ، واعتصرت الخطيئة جهد بدنه .

بقي من دور الحجر أصلبها ، وحافظ أقوى الخشب و الطين على بعض أسقفها ، وحوت في دواخلها على بقايا ما كان يعـــز في وقته من أدوات الزرع والحيـــاة ، وخلت من أي هسيس لقـــدم أو دابة ، فكانت تبدو للمطل إليها من رأس الجبل متهالكـــة وخـــامدة كأنما عج بأهلها آفة فشردهم .

وتناثرت على غير نظام مبان بالأسمنت ملونة ومتباعـــدة تربـــط بينها عمدان عالية على أكتافها حبال من نحاس .

كان الشايب (عطية) يقعد تحت غطاء جبته في طرف ســـاحة داره العتيقة وكانت زوجته تدير لسانها بدعاء يهديهم بنفس طيبـــة ويزيل من قلب هذا الشايب هموم ما جرى به الزمان وقالت :

- : يا (مخلوق) همت نفسك ، أدخل .

وكانت وهي المحزونة تبدي لـــه طيّب القول وتوطئ للبشاشـــة في نظرته ولكنه يغمغم بكلام غير مفهوم ، ودخل فألقى بجبته علـــى حافة السرير وقال :

: إنك لا تدرين أكثر من حدود سريرك .. لقد تخاصم إبـــن فلان مـــع فلان حول ذلك السفح المنحدر قرب داره، واشتكى إلى رؤوس الجماعـــة ، فما نطق بالحق من لا يخشـــى لومة اللائم .

صفقت الجدة بكفيها كمن يعجب من أمـــره علـــى كـــره مضيض ، وقالت وهي تعجن قعدها :

- : أشهد أن لا إله إلا الله .. طول عمري أعـــرف أن السفح لأبن فلان .

وحلفت بعلاّم الغيوب ، (وليس لأحد عليها يمين) أنها تعرفـــه كما تعرف كفها .

وقال :

: خلّي عنا قيل وقال ، لقد (وقع الفأس في الرأس) فلان وفـــلان مـــن الجماعة لأمر يغيب عنا شهدا زوراً لفلان ، وحلفا أن السفح كان يعـــم جيب الصدر بالحنطة .

وعجبت الجدة ، وفتحت الدهشة فمها ، وكـــادت عيناهـــا تقفزان من محجريهما وقالت ونفسها يلقي بسخرية مضحكة :

– : متى كانت الجبال الصم تنبت الحنطة ؟ !

قعد الشايب قربها ، وذهب يفتق لها سالفة ما حـــدث ، فقـــد وقف الشاهدان بحبوب الحنطة في جيوبهما وحلفا وقتها ، فكـــانت الحيلة ناجحة في ظاهرها فجّة مزورة في باطنها .

ووقتما تحوّل سواد الليل بعد العشاء إلى ظهيرة تحـــت إضـــاءة الكهرباء ، طرق الباب طارق فوقع من قلب الشايب موقع البغتـــة في ليل الهدأة وقال :

- : من ؟ .

فأجاب صوت حوله لجلجة كلام :

- : أنا أبو فلان .

قام الشايب كالمفزوع وسحب قدميه بخطوات عريضة وقضى وقتاً عالج فيه مزلاج الباب ، وكانت أذنا الطارق تلتقط شتائماً خفيفة لا بد أنها كانت بلا أدنى بصيرة تعني كهلته التي أوثقت المزلاج عند المغيب ، وقال القادم بعد المصافحة والسلام ، ومعه صاحباه اللذان يردفانه بالقول :

(يا أبو حامد) سألتك بالله .. هل علمت أن أحداً أدعى ملكية السفح الجبلي الذي قرب داري ؟

تطلع الشايب في الوجوه المنتظرة وقال :

لا حول ولا قوة إلا بالله .. اسمعوا يا جماعة الخير .. كلمة الحق موجعة ، ومن قال إن السفح لغيرك فقد ظلم .. هاتوا شاهداً آخر وابشروا بكلمتي الصادقة .

وخرج الثلاثة على أمل طيب ، وكانت الأيام تفنى في البحث عند فلان وفلان ، فيأبى هذا ويتقي شر الفتنة هذا وبعد أسابيع كان صاحب السفح قد وضع يده في يد شاهد معمر ، وساح فرح منتصر في صدره ، وقال في الغد نذهب لـ (أبو حامد الشايب) وأمام كل أذن معرضة يبين الحق لمن أراد اغتياله .

الدمام ١٩٨٨/٨/٢٨م

" يعتبر عبدالعزيز مشري من المبدعين الروائيين البارزين في السعودية وفي الوطن العربي، حيث تتميز كتاباته بدرجة عالية من الصدق الفني، الذي استطاع من خلاله تقديم وجدان الإنسان السعودي الضارب بجذوره في أعماق التاريخ وتراث الحياة القديمة، ولذلك تنبعث من ثنايا سرده الروائي والقصصي، الذكريات والحكايا المفعمة بالشجن والتشبث بالجذور"

الروائي "صنع الله إبراهيم"

" حبست نفسي في غرفتي يوماً كاملاً بنهاره وليله لقراءة المشري وإعادة قراءته، وكما قلت (من قبل)، لم يشد انتباهي في الأعوام الأخيرة أي عمل محلي أو عربي سوى "الطوق والأسورة"، وسوى "الوسمية"، وقد أحسست أنه عمل أدبي لا يرقى إلى مستوى "الطوق والأسورة" فحسب، بل يكاد يرقى إلى مستوى أي عمل أدبي عالمي كرواية "مائة عام من العزلة" لماركيز.

(جريدة الرياض - ملحق ثقافة اليوم ١٤ ابريل ١٩٨٨م) .

الناقد : عابد خزندار

" ومنذ أن عرفت "المشري" وأنا أتشبث بأجمل وأعظم ما فيه، وما في كتابته، وهو هذه القدرة الغريبة العجيبة على التعالي فوق كل ألم والتسامي بكل معاناة، إلى مرتبة المعاناة الإبداعية المنتجة لهذا النص الإبداعي الجميل المتصل أبداً "

الناقد : د. معجب الزهراني

" وحين تقرأ للمشري، فأنت أمام إشراقات إبداعية منهمرة من ثقوب التجربة في احتكاكها بلحم الواقع في شراسته وخشونته وتوليفته العجيبة، أنت أمام عمل يتمرد على مواضعات الهيكلة والقولبة والتقنين والتنظير، فهو يقيم هندسته الخاصة من شظايا الشروخ التي عصفت بكيانه الإنساني على المستوى الذاتي والعام معاً .

الناقد د. محمد الشنطي

أصدقاء الإبداع

أصدقاء عبد العزيز مشري

الدمام - مطابع الايمان تلفون: ٨٤٧٢١٤١ - فاكس: ٨٤٧٢١٤٥